الفصل الثالث

حرب المفاهيم التقليدية للقتال والممارسات

ما هي الإستراتيجية التي بدأت؟

أشار المؤرخ العسكري المتميز السير "مايكل هوارد" إلى أنّه - من الناحية النظرية - يجب أن تجتاز الإستراتيجية اختبار الواقع. لكن "هوارد" يحذر هنا من الإفراط في الحكمة وينطبق الأمر على هذه الإستراتيجية. فالإستراتيجية التي لم يتم تطبيقها واختبارها في الصراعات، يمكن اعتبارها إستراتيجية نظرية، وغير مثبتة ضد مرجعيات العمليات.

هذا الفصل هو المعني بتطبيق اختبار الواقع بالنسبة للإستراتيجيات، مع قياس النظرية ضد الممارسة، ولكن لن يتم فعل ذلك عن طريق دراسة السبل التي يمكن أن تكون القوات العسكرية تقليدياً قد حاولت تحقيق أي انتصار، ولكن سيتم ذلك عن طريق دراسة ما تم تنفيذه إستراتيجياً وقد خُفّضت إلى الأساسيات، حيث يضم القتال في الحرب عنصرين هامين وهما:

- اختبار القوة.
- صراع الإرادات.

يكمن الهدف النهائي لأي مواجهة عسكرية - بغض النظر عن حجمها - إلى كسر إرادة العدو المحارب، ولتحقيق أكبر قدر ممكن من السيطرة على تفكيره ونخلص من هذا القبيل إلى أنّ تكاليف استمرار المقاومة سوف تتجاوز تلك التي تقدمت بها، أو أنّ تلك القوات ستفقد ببساطة روح المقاومة.

ولكن - من الناحية المثالية - يمكن أن يتأتّى ذلك وسيتحقق الهدف دون إطلاق أي عيار ناري، وذلك من خلال اتباع نهج "سيكولوجيا" الإكراه، وهو نهج يمكن أن يتخذ أشكالاً عديدة كالعنف الجسدي (الاغتيالات) والترهيب، والتدابير الاقتصادية، والضغوط الدبلوماسية، والدعاية، والإعلام.

وبذلك، فإنّه من المحتمل تجنب وقوع عدد قد لا يحصى ممن ستُسفك دماؤهم بعد أن منعته ديناميكيات الردع.

لكنه ومع ذلك، ولأننا لا نعيش في عالم مثالي، فقد لا يكون نهج "الإكراه" دائماً خياراً مقبولاً لأحد أطراف النزاع أو لكليهما معاً. أو لأسباب قد تبدو في بعض الأحيان هامشية بالنسبة إلى آخرين، هذا من جهة، ولكن من جهة أخرى قد تكون إحدى القوى مصمّمة على مواصلة العمل العسكري، بغض النظر عن الظروف.

بيد أن الحرب في ظل مناقشات ومحاورات أوسع نطاقاً يمكن أن يحدث.

وهكذا، فبما أن الإستراتيجية هي فن كيفيّة الانتصار، والمعركة الحاسمة، بحكم تعريفها، فإنّه يتوجّب على أطراف النزاع النظر مباشرة إلى الهدف: حيث يمكن للمنتصر، أن يحقّق الغايات العسكريّة فوراً في غضون فترة قصيرة.

ولكن ثمّة ما هو أفضل للمنتصر، ذلك أنّه - حتى القرن التاسع عشر - كانت المعركة الحاسمة في كثير من الأحيان تتبع النتائج السياسية، فضلاً عن تحقيق النصر العسكري، ذلك لأن رئيس الدولة - في كثير من الأحيان - يكون أيضاً القائد العام للجيش.

كان الخبير الإستراتيجي "كلاوس" مدافعاً قوياً عن المعركة الكبرى (الحاسمة) وقد اعتبر أنّ تدمير جيش العدو يعتبر من "مبادئ الحرب" ولكن هذا فقط يعتبر من الأمور الكبيرة العامة حيث يمكن أن تُسفر المعارك عن نتائج بالغة الأهمية. ولكن لا أحد يفضّله، وقد أوضح "كلاوس" على أنّه: من أجل تحقيق الانتصار الساحق، فلابد للقصر من التخطيط الجيد لسلسلة من الخطوات، وربما ساهم ذلك لنجاح إستراتيجية حاسمة، ولكنّه بعد ذلك أيّد وجهة النظر بالنسبة إلى الحرب البحرية من قبل القوة البحرية بين البلدين المتحاربين.

كان الحكّام قبل ظهور النظام الحديث لنظام الدولة القومية مثل الفراعنة والملوك والأباطرة، والقياصرة وزعماء القبائل، يميلون إلى تجسيد الأشخاص ضمن أدوات السلطة الوطنية مثل الجيوش، والبحرية، والخزانات، والدّين والقانون لكن العواقب قد تكون كارثيّة، لأن رئيس الدولة من المحتمل أن يكون أيضاً قائداً

للجيش، وهزيمة هذا الجيش قد تعني انهيار العالم بالنسبة له. وذلك كما حصل مع "نابليون بونابرت" في معركة "ويلنجتون" النهائية التي هُزم فيها في "واترلو" عام 1815، ولربّما يقدّم هذا مثالاً كلاسيكياً، لدرجة أن يقول بعض أحد نظرائه في معركة "واترلو" قولاً مأثوراً عن قضية خاسرة في أيّ مجال من مجالات المسعى الإستراتيجي.

هناك أمثلة أخرى من المعارك التي يبدو أنها قد غيرت - في نفس الوقت - مجرى الحرب وكذلك مصير الأمم كما حدث مع أسطول الإمبراطورية اليونانية في هزيمة الفرس في "سالاميز" عام 480 قبل الميلاد، ومع القائد"ويليام" من غزو "النورماندي" في "بريطانيا" عام 1066، وما حدث مع الإمبراطورية اليابانية بالإضافة إلى تدمير الأسطول الإمبراطوري لروسيا بالقرب من موانئ مدينة "تسوسيميا" وأسطول "البلطيق" في عام 1905، وفي انتصار القوات الجوية الملكية البريطانية في منتصف عام 1940.

وهناك العديد من الحالات الأخرى التي يبدو فيها أثر نتيجة "المعركة الحاسمة".

إذا كان ثمّة وثوق من أنّ الانتصار سيكون "وشيكاً" في المعركة الحاسمة على الأرجح، وإذا كان هذا الانتصار من شأنه أن يلبي تعريف النصر، فإنّ العمل سيكون متسقاً مع الأهداف الإستراتيجية. ولكن إذا كانت له طموحات وردت فوراً على مستوى أكثر تواضعاً، وربما بشكل أقل وليس خسارة، فإنّ احتمال أن يضطر الطرف الضعيف إلى خوض معركة حاسمة سيكون قوياً، ولكن يبدو أنّ ذلك سيكون إستراتيجية غير سليمة. فحاكم السلطة تقع على عاتقه - في جزء كبير منه - على الجيش عادة، وعلى وعي تام للعواقب الوخيمة التي قد تحدث، حيث من المرجح أن الجيش يمكن أن يختفي برمته من الوجود.

وعلاوة على ذلك، ففي حين أنّ مفهوم المعركة الكبيرة قد يكون لديه معايير للقوة من العصور القديمة حتى فترة حروب "نابليون"، ولكن في الآونة الأخيرة على ما يبدو تطورت الأمور بشكل مغاير حيث أصبحت المسألة تكمن في السياسة، وفي الصلة الأساسية بين الغايات، في السبل والوسائل.

وهكذا؛ تدريجياً أصبح الفصل بين سلطات الدولة ككل، وبين الحاكم يعتبر سمة من سمات العالم في إدارة الشؤون منذ عام 1215، وذلك عندما أجبر النبلاء الإنجليز المتمرد "جون الملك" على التخلي عن بعض حقوق الملكية المطلقة، وتنازله الرسمي عنها.

على الرغم من أنّ هذه العملية كانت بطيئة، ولا تزال بعيدة عن الاكتمال، كما يتضح من العديد من الحكام المستبدين الذين أمسكوا بزمام السلطة في القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين من أمثال "جوزيف ستالين" و"أدولف هتلر"، و"شاه إيران"، "فيدل كاسترو"، و"نيكولاي" و"صدام حسين"، "فرديناند ماركوس"، "روبرت موغابي"، وغيرهم الكثير.

لكنه مع ذلك، فإنّ ذلك الاتجاه كان هو الغالب مع احتمال حدوث ما يسمى "معركة عسكرية حاسمة" التي قد تؤدي إلى انتصار سياسي حاسم، لكن هذا الأمر كان ممكناً - ولكن ليس مؤكداً - في الزمن الذي عاش فيه الخبير الإستراتيجي "كلاوس" والذي أصبح بعيداً.

كما لوحظ، فإنّ "كلاوس" يؤيد المعركة الكبيرة بوصفها إستراتيجية رئيسية لمفهوم يرتكز في جزء كبير منه على استنتاجه بأنّ تدمير جيش العدو هو المبدأ الأساسي للحرب، لأن الجيش في الواقع إنما يجسد الإرادة الوطنية.

ولكن، لا يوجد دليل أقوى على تكذيب هذا التعميم، لأنّه قد ينطبق على العالم الحديث وعن وجود دوافع هجومية كالتي قامت بها الجيوش الفيتنامية الشيوعية في أوائل عام 1968 بعد رأس السنة الفيتنامية وفي الفترة التي تزامنت مع ذلك، حيث شهدت هجوماً للقوات الفيتنامية الشمالية وقوات الفيتكونغ التي قامت بعملية واسعة في سلسلة من الهجمات المنسّقة ضد معظم المدن الفيتنامية الجنوبية. ولكن، بعد أن اشتعلت الحرب في البداية خارج نطاق الحراسة، وفي المعارضة التي تقودها الولايات المتحدة التي صدّت الهجوم وألحقت خسائر رهيبة على أعدائهم. بيد أن قوات "الفيتكونغ" كانت قضت على وجه الخصوص، لدرجة أنّ بعض المعلّقين يعتقدون أنّهم لم يشفوا منها قبل سبع سنوات على انتهاء الحرب في وقت لاحق.

obeikandl.com

من الناحية العسكرية الصارمة في الولايات المتحدة وحلفائها، فقد اعتبر ذلك انتصاراً كبيراً. ومع ذلك، فإنّ مجرّد وحدات من الشيوعيين مارسوا إستراتيجية قتال الغابات، وقد حدث أمرٌ شبيه بين قوات المملكة المتحدة والأرجنتين أثناء صراعهما على جزر "فوكلاند" في عام 1982 وقد تمّ تشبيه ذلك القتال بأنّه كان أشبه بتمشيط رجال حليقي الرؤوس! وهي موضع شك في منطق الصراع، ومع ذلك فقد كان واضحاً أنّ الأرجنتين حاولت احتلال الجزر، بل وأصبح الأمر معروفاً للعالم، وكان الأمر الواضح تقريباً هو أنّ رئيسة وزراء بريطانيا آنذاك "مارغريت تاتشر" سوف تتخذ ما يلزم من تدابير عسكرية لطرد الغزاة.

كان القتال سيحتدم قريباً عاجلاً أم آجلاً من جهة، وكان من المرجّح أن تأتي النتائج لتحقيق ذلك في حال مواصلة القتال، بل ومن المحتمل أن يفقد الجيش الأرجنتيني أكثر مما سيكسب، وهو بالضبط ما حدث للأرجنتينيين في جزر "فوكلاند".

كان واضحاً في تلك المرحلة على ما يبدو أنّه إذا ما خسر صنّاع القرار الرشيد، فإنّهم سيبدؤون برفع دعوى لوقف الأعمال العدائية المفتوحة ذلك لأنّه ليس جميع صنّاع القرار الرشيد - بطبيعة الحال وببساطة - ذوي ميول واحدة، وقد لا يكون من الممكن حصول اتفاق موحد "داخل العقل" ومثال ذلك، الخصم المتعصب المُصمّم على القتال حتى الموت من أجل قضيته.

كان جنود الحلفاء في منطقة المحيط الهادئ في مسرح الحرب العالمية الثانية قد أُصيبوا بالصدمة عندما اكتشفوا بأن الاستسلام بالنسبة لكثير من أعدائهم اليابانيين ليس خياراً في الإستراتيجية الكبرى لديهم على سبيل المثال. لكنّه، وفي أواخر عام 1944 كان من الواضح أنّ ألمانيا ستخسر الحرب العالمية الثانية، وقد تزامن ذلك مع رفض "هتلر" الاستسلام، مما كان ينذر بحدوث مزيد من الدمار، وبالفعل فقد ساد الدمار مادياً ومعنوياً، وهو ما حدث.

وبدلاً من ذلك، قد يكون هدف أحد الأطراف هو القضاء على الطرف الآخر بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى، وحتى ربما، لأنّ خصومهم قد أعربوا عن رغبة لإنهاء

العمليات العسكرية، وهو الموقف الذي يعبر عن جانب من جوانب محزنة، لكنها الطبيعة البشرية التي كانت سمة ثابتة في سلوكنا كبشر.

وبصراحة، نحن نعرف أنّه سيكون لدينا كل ما حصل داخل عقل شخص ما كان قد قتل، فتاريخ الحروب مليء بحالات لا ترحم، وكذلك بعض من يمتلكون قدرات عقلية قليلة - إن وجدت - تجر الأعراق والثقافات والأديان، إلى ما يمكن أن يدعى بالاستبعاد.

الإرغام والإكراه:

يرى خبراء الإستراتيجيات أنّه من الضروري التأثير على التفكير والسلوك وغيرها، والتي تعتبر من الأمور التي وفرت قوة دافعة لتطوير الإستراتيجية العسكرية؟.

وبغض النظر عن الظروف التي تعتبر إستراتيجية، فإمّا أن يكون الإرغام أو الإكراه، أو تطبيق مزيج من الاثنين معاً إذا كان ذلك لتحقيق هدفها.

وبصفة عامة، يرتبط الإرغام مع تطبيق واضح للقوة، في حين يرتبط الإكراه مع خطر العنف الجسدي أو غير ذلك من بعض الضغوط المختلفة. وحيث أنّ عدداً من المفاهيم المرتبطة بها يمكن شرحها بشكل آخر فعبارة الإرغام تشمل المعركة الحاسمة، وخروج المغلوب بضربة غير مشروطة تعتبر انتصاراً، مع افتراض إجراء الاستيلاء على أرض الواقع، والتوازن بين هذه الجريمة والدفاع، بينما الإكراه؛ ويشمل الردع (الانتصار دون قتال) والمخاطر، والتي تدمج بين مجموعات فرعية من التصعيد التدريجي، والذرائعية، والتدمير المتبادل المؤكد.

تعتبر كل هذه الإستراتيجية التي تقوم عليها، بغض النظر عما إذا كانت تؤكد الإرغام أو الإكراه، أو الاثنين معاً، وربما كان الأكثر حيوية في أي إستراتيجية هو التصميم، ومفهوم مركز الثقل.

ولذلك لا يمكن أن يكون هناك غرامة الخط الفاصل بين عمل مراقب يقف على جهة واحدة حيث يرى الإرغام في حين يراه آخر في الجهة المقابلة على أنّه إكراهاً.

ولكن يمكن أن يشار إلى ذلك التداخل الناتج - إلى حد ما - إلى الطبيعة المجردة للموضوع الذي يؤدي إلى تقديم وصف غير دقيق يجاريه في أفضل الأحوال. ولكن ما

هي - على وجه التحديد - تلك الخصائص التي تجعل من ممارسة التصنيف أمراً مفيداً، لأنه بدون ذلك، فإنّ محاولاتنا لمعالجة الموضوع والوقوف تحت القضايا الرئيسية التي يمكن أن تجعلنا في موقع الحيرة من أمرنا. فما دمنا نقدر القيود، فإنّه يمكننا وصف ما قد يكون مفيداً للمساعدة على الفهم. ولكن مع هذا فالحذر واجب هنا، وفيما تبقى من هذا الفصل، سنناقش المفاهيم الرئيسية الآتية من جانب روتيني، وكذلك الإعراب عن رغبة الإنسان في الإجبار والإكراه.

المعركة الحاسمة:

يعتبر مفهوم المعركة الحاسمة أو المعركة الكبيرة نقطة الانطلاق لمناقشة الإرغام وكسر إرادة العدو:

- **أولاً:** لأنها تمثل الإستراتيجية الطويلة الأمد في الإدانة.
- **ثانياً:** لأنها تضع إطاراً مفيداً لأعمال القتال في الحرب ويرتبط بها من أمثال وممارسات عدة حيث يمكن القول:

إنّ استخدام مصطلح "الإرغام" و"الإكراه" ضمن انضباط الدراسات الإستراتيجية تكون واضحة في بعض الأحيان، بل وأقل مما تقتضيه الحقيقة والمصادر التي تبحث في وقت مبكر من التمييز (ويختلف هذا الكتاب عما جاء في كتاب "جيم توماس شيلينج" تأثير الأسلحة (نيو هافن: مطبعة جامعة ييل، 1966):

في إحدى الليالي، تسمّر الملايين من الأمريكيين في كافة أنحاء الولايات المتحدة أمام شاشات التلفزيون وهم في حالة من الذهول من وقع الصدمة، حيث شاهدوا الهجوم المدمر لفرق الجيش المدمرة على أعدائها من القوات الشيوعية حيث سجل ذلك انتصاراً سياسياً مذهلاً لسياسة الولايات المتحدة في الهند الصينية.

وهذا ما فعله الرئيس "جورج بوش" أثناء غزو العراق في آذار / مارس 2003، وهو ما لا يقل عن فكرة إلقاء الضوء على العلاقة بين المعركة الحاسمة على النحو الطريق، والعنصر السياسي من الغايات.

كان هناك المزيد من الحملات العسكرية الساحقة التي حاربت بشراسة لستة أسابيع واستطاعت هزيمة "جيش صدام حسين" بمساعدة التحالف الدولي بقيادة

الولايات المتحدة.

وهنا، يمكن إيجاز ذلك بكلمة واحدة وهي المشاركة، والتي تركزت على اندفاعات هجومية هائلة القوة انطلاقاً من مدينة "البصرة" وصولاً إلى العاصمة "بغداد" وذلك بالتعاون مع قوات التحالف البرية والجوية، لأنّه أياً كانت النوايا والمقاصد فإنّه يمكن اعتبار تلك المعركة معركة واحدة.

كانت تلك المعركة من الناحية العسكرية حاسمة تماماً، مما دفع الرئيس الأمريكي جورج بوش في شهر أيار / مايو للقول بأنّ العمليات القتالية الرئيسية في العراق قد انتهت.

ولكن - حتى الآن - وعلى مدى الشهور التي تلت ذلك الإعلان، فقد تدهورت الحالة الأمنية في العراق بصورة مفزعة حيث عاد المسلحون إلى تكتيكات حرب العصابات التي سخرت من تأكيد تصريحات الرئيس "بوش"!!.

وكما كان الحال مع هجوم "تيت" فإن الفصل العسكري كمعركة حاسمة يجب أن يترافق مع تحقيق غايات سياسية شاملة.

كان واضحاً أنّ ما حدث في فيتنام عام 1968 والعراق عام 2003 من أنّ الديناميكية السياسية على الأقل كانت غير حاضرة منذ الحرب الفرنسية البروسية من عام 1870 إلى 1871. وهذا ما قد يؤدي إلى هزيمة للأمة في القوات المسلحة حيث لم تعد تساوي بالضرورة تحقيق انتصار سياسي.

لقد أوضح الخبير الإستراتيجي "مايكل هوارد" أنّه إذا كان كل الجيش الفرنسي النظامي قد حاصر مدينة "متز" في شهر تشرين الأول / أكتوبر عام 1870 فقد استمر الصراع لفترة خمسة أشهر على النحو الشعبي من خلال حرب العصابات.

وبعبارة أخرى، فبغض النظر عمّن يأتي من خارج ما يسمى المعركة الحاسمة، فإنّ الضربة الحاسمة لا تتحقق إلا عندما يستسلم سكانها.

وأخيراً، قد تكون عملية تحديد مستوى المشاركة أمراً صعباً فيما يتعلق بتقدير ما يلزم لجعل المعركة الحاسمة تكون نقطة حسم على الأرض.

تعتبر هذه النقطة بمثابة الحد الفاصل بين النصر والهزيمة، وهذا ما حدث عبر

obeikandl.com

التاريخ الحربي حيث استطاع "الإسكندر" من سحق القائد الفارسي "داريوس" في "جاوجاميلا" عام 331 قبل الميلاد، وبالتالي توليه السيطرة على مملكته؛ وكذلك ما حدث مع القائد "وليام" في هزيمة "هارولد" في "هاستينجس" عام 1066، والشيء ذاته هو ما فعله "ويلنجتون" في هزيمة نابليون في "واترلو" عام 1815، وقد ساهمت تلك الهزيمة - على نحو فعال - في وضع نهاية لدكتاتور الفرنسية الأولى، وكذلك يطبق ذلك على الإمبراطورية اليابانية وهزيمة الروس في "تسوشيما" في عام 1905 وللمرة الأولى تمّ تأكيد التفوق من خلال الأقاليم الأوروبية الآسيوية، وما إلى ذلك.

ولكن تبقى الحقيقة أنّ هذه الأمثلة هي الاستثناء وليست القاعدة. وعلاوة على ذلك، فإنّ الكثير من المعارك التي يعتقدون مسبقاً أنّ من شأنها أن تكون أمراً حاسماً، أو الذي وصفه المؤرخون "البداية الحاسمة" ولكنها بعد ذلك قد فقد كشفت عن إستراتيجية ضئيلة أو حتى عن فائدة عسكرية، كما كان هناك العديد من المعارك التي لم تكن تعتبر حاسمة في ذلك الوقت، ولكنها اعترفت في وقت لاحق على هذا النحو.

وحتى قبل بدء القتال، فقد كانت القوات التابعة للقوات الجوية الملكية البطولية قد استبسلت في الدفاع عن المملكة المتحدة في شمال خريف 1940 التي كانت توصف بأنها المعركة الوشيكة لبريطانيا، وهكذا، ففي السنوات التي انقضت منذ ذلك الحين - بصورة ثابتة تقريباً - قد وُصفت بأنها واحدة التعاقدات الحاسمة في التاريخ العسكري باعتبارها ملحمة النصر حيث فاز فيها توزيع الموارد على خلاف الهوامش الأضيق وهو ما منع الغزو النازي للمملكة المتحدة، وبالتالي إنقاذ الديمقراطية الليبرالية في أوروبا.

لقد أظهرت الاحتمالات من خلال الدراسات الدقيقة أنّ توزيع الموارد كان أحد أسباب النصر القوية في نهاية المعركة، وفضلاً عن ذلك، فإنّه حتى ولو كانت تقود إلى تعثر النازيين فإنّه مازال يتحتم عليها أن تواجه جبروت أعدائهم وعناد البحرية الملكية وذلك عندما كانوا يحاولون عبور القناة الإنجليزية، وهو تحدّ يبدو أبعد من الوسائل المتواضعة نسبياً.

كان القائد البحري "كريغ" على الوجه الآخر يناقش النتائج المترتبة على معارك "بحر كورال وميدواي" في منتصف عام 1942 والتي لم تكن تماماً تنال تقديره لفترة طويلة، فقد كانت تلك المعارك البحرية - وعلى نحو فعال - تدور بنفس الوتيرة ولكنها طالت حيث كانت قد بدأت منذ أكثر من شهر، وعلى مسافة تبلغ نحو 4000 كيلومتر، حيث كانت هذا المعارك تهدف بالدرجة الأولى إلى تحطيم القوة الجوية للبحرية اليابانية.

ومنذ ذلك الحين، كانت اليابان الكبرى تبدأ معاركها المستميتة مصرّة على الاستيلاء على أراض في منطقة المحيط الهادئ، وكان يبدو أنّه أمر لا يمكن أن يتحقق ولكن كانت الهزيمة مجرد احتمال. بيدَ أنّ الأمر قد استغرق عدة أشهر قبل أن يصبح واضحاً نتيجة لحلفائها.

وبعبارة أخرى، فإنّ القوات البحرية الأمريكية حصلت على المعركة الحاسمة مع آثار سياسية عميقة دون حصد النتائج الكاملة منها.

مما سبق، يمكن القول بأنّه لا يوجد شيء اسمه "المعركة الحاسمة" أو أنّ هذا المفهوم ليس له مكان في التفكير الإستراتيجي، إلا أنّه يشير إلى أنّ الربط بين هذا المفهوم والمرغوب هو غايات سياسية، بل وأكثر تعقيداً مما هو عليه في بعض الأحيان.

كما ويعتقد على أنّه، وبالإضافة إلى ذلك، قد يكون من الصعب جداً تحديد مسبق - على وجه الدقة - كيف أنّ "المشاركة" يمكن أن ينظر إليها على أنها حاسمة وسوف تسهم في تقييمنا لما ينبغي القيام به لتحقيق الانتصار.

ولكن إذا كان هذا الاستنتاج يبدو واضحاً للعديد من القرّاء، فإنّه لم يكن كذلك الكثير بالنسبة للجنرالات.

مفهوم المعركة الحاسمة يجلب معه عدداً من النظريات التي يرتبط بها من القتال في الحرب وهناك أفكار كثيرة على ذلك، ونخص بالذكر ثلاثة منها وهي:

- فكرة خروج المغلوب بالضربة الحاسمة.
- الآثار التكنولوجية الإستراتيجية الحتمية المحتملة على الأقل في استيلاء

الجيوش على الأرض.

- الحفاظ غير المشروط على هدف الانتصار.

ضربة خروج المغلوب:

يمكن أن يطلق على الانتصارات الحاسمة التي حققها كل من "الإسكندر" و"وليم ويلنغتون" والتي فكّكت بفعالية هيكلية العدو الوصف بأنّها خروج المغلوب بالضربة الحاسمة وإن لم يكن ذلك المصطلح دقيقاً دائماً. فسجلات التاريخ تحتفظ - بشكل روتيني - بالحالات التي تترجم فيها على الفور الجيوش المنتصرة عسكرياً إلى انتصار سياسي.

وهكذا، فقد ذكرت السجلات التاريخية ما حدث مع " ثيوسيدس " بتدمير "ميليان" السياسي عام 416 قبل الميلاد بعد خوض معركة كبيرة تعتبر معركة "نزيهة" حيث قام "الأثينيون" بتحذير خصومهم، وأجبروا "الميلانز" على الاستسلام دون قيد أو شرط، ولكن تمّ تنفيذ حكم الإعدام بسكان أثينا، وقد طال ذلك جميع الرجال في سنّ الخدمة العسكرية ومن ثم بيعت النساء والأطفال، وبكل المقاييس الإنسانية، فقد كان خروج المغلوب بالضربة الحاسمة أمر لا يرحم.

بالنسبة للفكرة الرئيسية، فقد كان ما يدعى "خروج المغلوب بالضربة الحاسمة" قادراً على توجيه الضربات السريعة ضد العدو المتصور وعلى مراكز الثقل بالتحديد، مثل المراكز السكانية الرئيسية، ومصادر الغذاء والثروة، وهذا بدوره يعني القدرة على إجرّاء الأذى الفاعل على المدى الطويل، ومن ثم على الأوبرا العسكرية التي ستعقد.

يعتبر ضرب وسائل النقل المتنقلة من الأمور الهامة للقوات الرئيسية، وهذا من الأسباب القوية للقوات البحرية التي يمكن أن تظهر بشكل غير متوقع وعلى مسافات بعيدة من المناطق المأهولة، فلعدة قرون، كان يُنظر إلى القوات البحرية كتعبير قوي عن خروج المغلوب بالضربة الحاسمة.

يمكن القول هنا أن "الأثينيون" كانوا يمتلكون أعظم أسطول خلال الحرب "البيلوبونيسية" في القرن الخامس قبل الميلاد وكانت ذات قدرات بحرية هائلة، مع

القدرة على الالتفاف على الضربات غير المتوقعة. وكذلك القدرة على بناء السفن وتحسين التكنولوجيا، حيث كانت الإمبراطوريات الكبرى كالبرتغالية والهولندية والإسبانية والبريطانية تقوم في جزء كبير منها على قدراتها البحرية من حيث القوة، وذلك لتطبيقها مباشر في المكان المناسب، وأحياناً على الجانب الآخر من الكرة الأرضية.

تجعل قيود الجغرافيا دائماً متغيرات مختلفة بحيث يكون من الصعب على الجيوش متابعة نظرية خروج المغلوب بالضربة الحاسمة، ولكن دون أن يجعل ذلك مستحيلاً. وهناك حملات كبيرة موازية، كتلك التي شنّها الحلفاء في "غاليبولي" في شهر نيسان / أبريل عام 1915 وشمال إفريقيا في تشرين الثاني / نوفمبر 1942، حيث شنّت في جزء منه على أمل خلق الحسم، إن لم يكن بالضرورة تحقيق نهاية سريعة للحرب.

ولكن تلك الأنواع من العمليات عادة يقوم على دعم الخدمات اللوجستية، وهذا يتطلب جهداً هائلاً كما حدث في شمال إفريقيا حيث شاركت نحو 436 عملية رسو للسفن.

وقد أكّد بعض المعلقين على وجود نموذج بديل على الأرض في شكل عميق، وقد يكون ذلك على شكل معركة عقيدة كان قد وضعها المارشال السوفياتي "توكهاشيفسكي" في "مينيسوتا" عندما كان يحاول إصلاح وتحديث الجيش الأحمر في عام 1930، وذلك بالاعتماد على الأعمال المعاصرة له، حيث قام بتنسيق تشكيلات من المشاة والفرسان، والطائرات، ومهاجمة الوحدات الميكانيكية كلها في عمق دفاعات العدو بما في ذلك العمليات السريعة والعمليات المتلاحقة في عمق العدو ضد القوات المقاتلة، ودعم القواعد وخطوط الاتصال، من شأنه أن يحرم العدو فرصة لإعادة تنظيم صفوفه، وقد كان أمراً مبتكراً رائعاً، ولكن الهدف هنا ليس لتحقيق ما يدعى خروج المغلوب بالضربة، لتسخير التكنولوجيا الناشئة مثل الدبابات والطائرات، وأجهزة الراديو ذات الاتجاهين لخلق تفكير جديد، وذلك كوسيلة لإعادة بسط حرب هجومية للمناورة حيث يكمن العامل المهيمن في الجمع

obeikandl.com

بين وحدة (من المشاة والمدرعات والمدفعية والجوية) والتكتيكات.

ومن بين الأمور الأخرى، فقد سعى للتغلب على الجمود النسبي في حرب الخنادق وأسلحة القتل الجماعي مثل المدفعية والرشاشات التي فرضت في ساحات القتال منذ وقت الحرب الأهلية الأمريكية.

وهكذا، فلم يكن من قبيل المصادفة أنّ عدداً من الضبّاط الألمان قد قاموا - وعن كثب - بتحليل أفكاره لاحقاً وكان من بين مهندسي الحرب الخاطفة.

عندما قام النازيون بتطبيق هذا المبدأ، كان التأثير ساحقاً في كل من "بولندا، وفرنسا" وبلدان قليلة وذلك في الشهور الأوائل من الحرب العالمية الثانية، ولكن النتيجة كانت لا خروج للمغلوب، ولكن في الضربة فقط وذلك بانطلاقة سلسلة من المعارك التي أدت إلى انتصارات متعاقبة أنجزت في نهاية المطاف الهدف المنشود.

وهكذا، فعلى الرغم من أنّه ينظر إلى الحرب الخاطفة - بالنسبة للجميع في وقت مبكّر - ذات نجاحات ممكنة، إلا أنّ ذلك لا يزال يعتبر عملية خطية، وهذا بدوره يعني أنّ أي محاولة لخروج المغلوب بالضربة الحاسمة، من المحتمل أن تكون رهينة للجغرافيا، وذلك كما حدث حيث ثبت أنّ هذه القضية بالذات كانت قضية جغرافيا عند الألمان، ولكن حاولت القيادة العليا تكرار ذات العملية في وقت لاحق من العام مع اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية عام 1941.

على الرغم من أولى سلسلة الانتصارات المذهلة التي حقّقها "هتلر" بزمن قياسي، فقد أخذ ينظر إلى التقدم نحو الاتحاد السوفيتي ووضع مركز الثقل في ذلك، وكان محور تفكير "هتلر" يكمن في نيته تفجير فكرة "خروج المغلوب بالضربة القاضية" وذلك بسقوط العاصمة "موسكو" ولكن القوات الألمانية في نهاية المطاف لا يمكنها مجرد الحفاظ على قوة الدفع اللازمة لتنفيذ جميع مراحل هذه الطريقة من الحدود إلى العاصمة السوفيتية، والتي تقع في نحو ستين كيلومتراً قصيرة.

بعد ذلك، وحين قامت الحرب، وبمجرد توقف النازيّن على مشارف الحدود السوفيتية، فقد كانت كفة الغلبة العددية ترجح لصالح الجيش الأحمر، في حين كان الضحايا يسقطون بشكل لا يرحم، وقد ساعدت فصول الشتاء المتكررة

والقاسية للغاية من سحق القوة الدفاعية المعادية، وهذا ما حدث أيضاً في عام 1812 حين دمرت قوات الديكتاتور نابليون.

على الرغم من تاريخها الطويل، فإنّ مفهوم خروج المغلوب بالضربة، قد اضطر للانتظار حتى ظهور القوة الجوية في القرن العشرين حيث شهد قدرة أقوى على التعبير. وقد أسهم عاملان بأجزاء متساوية على ذلك المفهوم المعزز:

• **أولاً:** توافر رغبة مشتركة بين رجال الدولة، مدنيين وعسكريين، على التجربة مرة أخرى فيما يسمى ذبح الخنادق التي اتسمت بها الحرب العالمية الأولى والثانية، والصفات الفريدة الجوية للطائرة وخاصة قدرتها العالية السرعة، وعلى المدى الطويل في المناورة، وهو ما يبدو قد منح التكنولوجيا المستخدمة المصداقية. كتكنولوجيا الطيران والإمداد في ساحة المعركة إلى الحد الذي بدأ يتوخاها القادة، والتي أدت إلى نتائج متميزة عما سبق، والتي ساهمت في فضح الأهداف الحيوية وفي عمق العدو والأهم من ذلك البقاء في مأمن، وقد تطور ذلك فيما بعد إلى حيث يمكن الآن شن الحروب على الفور ضد أمة بأكملها، والهدف هو التدمير السريع للإرادة الوطنية.

في حين تبقى الجيوش والقوات البحرية ببساطة على التماس مع تجاهل لما يمكن أن يقوم به الانتحاريون وهم في طريقهم لمهاجمة أهداف إستراتيجية حقيقية.

ولكن في خطر المبالغة في التبسيط، فإنّ النقطة الرئيسية تكمن في نظرة رجال الدولة والقادة العسكريين والخبراء الإستراتيجيين إلى القوة الجوية، وقد أصبح ذلك من النظريات العسكرية، وكان الاعتقاد أنّ الروح المعنوية للمدنيين سيكون هشاً وطنياً وضعيفاً في مواجهة الضربات القادمة من السماء والتي لا تقاوم.

خلال سنوات ما بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، لعبت فكرة القوة الجوية دوراً مهيمناً في الشؤون الدولية وفي المملكة المتحدة والولايات المتحدة بشكل خاص تجاه الإستراتيجية التي تقضي بتفجير حرب محتملة من أجل الفوز. بل وأكثر من ذلك، فإنّ الاعتقاد في سرعة خروج المغلوب بالضربة الحاسمة من الجو كان يبدو لتقديم بديل لتقاليد نظرية الذبح القذرة في الخنادق، لكن ذلك كان مجرد تصور، والغريب في منطق الحرب، ولكنه كان ذو لمحة إنسانية نسبياً.

يبدو أنّ نظرية استخدام الضربة الجوية قد تفي بالغرض فيما تبذله من جهود لترجمة النظرية إلى واقع عملي، وذلك بالتنسيق بين القوة الجوية ومخططي تطوير التقنيات المتطورة للاستهداف، ومع موظفين من الجيش الأميركي التكتيكي في مدرسة سلاح الجو، وعلى سبيل المثال، الترويج لفكرة واسعة وسريعة، والدفاع عن النفس باستخدام قاذفات تستطيع أن تحلّق في تشكيلات منظمة فوق عمق أراضي العدو من أجل تنفيذ ضربة خروج المغلوب الحاسمة ضد الأنظمة الوطنية المعادية حيث ستكون الأهداف منفَّذة بدقة، وعلى الأخص تلك الأهداف التي تمثل حجر الزاوية من خلال اختيار أهداف الصناعات لدى العدو حيث سيتوقف الهيكل الاقتصادي برمّته.

بعد مضي سنوات على انتهاء أحداث الحرب العالمية الثانية، يمكن القول من أن قوات الحلفاء التي اشتركت في الهجوم ضد ألمانيا واليابان قد حقّقت الهدف لا يزال أمراً موضع نزاع. في حين أنّ الهجمات في نهاية المطاف قد تحولت إلى محور اقتصاديات الحرب لكنه سرعان ما نهض على ركبتيه، ورغم أنّهم كانوا قد فعلوا ذلك، لكن تلك الضربات التي كان يتوخى منها أن تكون ضربة خروج المغلوب، لكنها لم تكن بالسرعة المطلوبة، ولكن مع حملات الاستنزاف، ومن المفارقات أنّ معظم النزف الذي حصل - حتى النزف الجوي - كان يعتبر كنسخة من حرب الخنادق، بيدَ أنّه كان من المفترض جعل لزوم لها.

فعلى الرغم من أنّ تكرار الهجمات قد جعل من الحياة اليومية البائسة للمدنيين في كل من البلدان المستهدفة أمراً لا يطاق، فقد كانت المعنويات الوطنية مكسورة بالكامل، وإذا كان هناك من ادعى بأنّها نهاية الحرب، فإنّ القنابل الذرية التي أسقطت على مدنيتي "هيروشيما" و"ناغازاكي" كانت بمثابة المفهوم التام لنظرية خروج المغلوب بالضربة الحاسمة، وتلك كانت الحجة التي أدلى بها الأميركي "برنارد" الذي يعتبر واحداً من أبرز المفكرين الإستراتيجيين في القرن العشرين، لكن الموت المروع والدمار الذي تسببت به تلك الهجمات قد لا تتفق مع خروج المغلوب كمفهوم الضربة الحاسمة كأصول وكبديل عن المذابح الجماعية، وعلى خلاف

مع قوانين النزاع المسلح.

تعتبر أعنف حملة قصف في التاريخ، هي الهجوم الجوي الذي قامت بها الولايات المتحدة في الهند الصينية وذلك منذ عام 1965 وحتى عام 1972 لكنها لم تحقق أيّ نصر من هذا القبيل، وكانت النتيجة واضحة، فعلى الرغم من العملية الثانية في كانون الأول / ديسمبر 1972 والتي كانت بالغة الوحشية رغم قصر مدتها، لكنها كانت الأسرع والأكثر تركيزاً، وكذلك كانت النتائج التي تحققت من الهجمات الجوية التي قامت بها القوات التي تقودها الولايات المتحدة في الحرب على العراق بين عامي (1991 و2003) وعلى جمهورية يوغوسلافيا السابقة عام 1999، وعلى أفغانستان بين عامي (2001 و2002)، ولكن لم يكن الأمر يصل إلى حد استخدام ضربة خروج المغلوب الحاسمة خلال هذه الحملات وغيرها، كان لابدّ من أخذ كثير من العوامل المعقدة في الاعتبار، وعلى الأخص ما يخص التخطيط، ولكن لا شيء كان أكثر تحدياً من الاستهداف.

كان السؤال المركزي المُلحّ من الحرب العالمية الأولى على الدوام: من أجل خلق الإستراتيجية المنشودة، ما هو الأثر الذي ينبغي أن تكون عليه الأهداف التي تتعرض للهجوم، وكيف؟.

تكشف تواريخ الحرب العالمية الثانية وكذلك حرب فيتنام عن أنّ تلك الصراعات لم تكن قط مسألة قد تمّ حلّها بشكل صحيح، ولكن مع ذلك، فقد استمرت الحملات ذات الهجوم والهجوم المضاد على حالة واحدة منذ نحو ست سنوات، فيما ظلّت في فيتنام لفترة أطول.

وهنا، يمكننا أن نتساءل عمّا إذا كان واضعو تلك الطرق في ضربة الحملات يسعون لتطبيق نظرية الإرغام أو الإكراه وسواء كانت عن تقديره الكامل للتمييز، وما إذا كانت مطابقة، وكذلك السبل والوسائل المتّبعة لبلوغ الغايات المرغوبة.

كان من الواضح أن الهدف المقصود من تنفيذ الهجمات الذرية ضد اليابان هو لإجبارها على الاستسلام، وقد فعلوا ذلك. ولكن، كما ذكر سابقاً، فإنّ هذا يمكن أن تكون نموذجاً للتخطيط في المستقبل. إنّها حملات القهر وقد كانت أقل

تعييناً، كما يتضح من مجموع منفذي العمليات الهجومية بدءاً من عام 1943 وحتى عام 1945، والتي كان هدف تنفيذها مترافقاً مع التركيز في البداية على كسر معنويات السكان الألمان، بل وكان المقصود أن تكون قسرية، ولكنها في نهاية المطاف، قد أدت هدفها من خلال تدمير المدن والصناعات، وينبغي تصنيفها على أنّها تعتبر امتداداً متتالياً للحملات الأمريكية في فيتنام منذ عام 1965 وحتى عام 1972، ولكنها في العراق في عام 2003 قد أظهرت وسائل مختلفة تماماً ذلك أن السعي في تنفيذ ضربة خروج المغلوب من خلال توجيه ضربة الإكراه يمكن أن تكون معقدة وصعبة.

كان هدف قصف الولايات المتحدة وهجومها على شمال فيتنام، هو خلق نوع من البلبلة، والتي بدأت تتفاقم بسبب الارتباك الناجم عنها، عدا عن المفارقات الثقافية مع الولايات المتحدة ومع المخططين لها والتي تنزع إلى فرض قيم العالم الأول على العدو في العالم الثالث، ونعني بذلك القيم الاجتماعية والاقتصادية لهذا النظام.

ومن هنا، فإنّ أي محاولة لتنفيذ قاعدة خروج المغلوب بالضربة الحاسمة بحكم التعريف يجب أن تستهدف أهدافاً عالية القيمة، وبصراحة؛ لم يكن هذا هو الحال هنا، الأمر الذي أدى بالأزمة لأن تزداد حيث أخذت المشكلة شكلاً أكثر تعقيداً لكنها قد بدت غريبة في نقل المفاهيم الإستراتيجية، ولذلك حاول مخططو الحملة البحث عن بدائل لتكييف الإستراتيجية النووية للتصاعد التدريجي لاستخدام الأسلحة التقليدية.

كان من المعروف أيضاً أنّ مخاطر إستراتيجية التصعيد التدريجي قد تكون ذات عواقب مجهولة التقدير، وذلك كما حدث ضد فيتنام الشمالية حيث تم استخدام قنابل شديدة الانفجار بدلاً من القنابل النووية، وقد طبق هذا الإجراء ضد الخصم الذي لم يكن على الإطلاق قادراً على الرد بالمثل. خصوصاً وأنّ القصد من هذا الموضوع وضع فيتنام الشمالية موضع المهزوم، لكنها تمكنت تدريجياً من التأقلم مع المستويات المتزايدة من المخاطر، وكذلك المخاطر التي حددتها كثافة الهجمات ومقدار الألم الناجم عنها، ولكن شمال فيتنام كان على استعداد لقبول الأمر إلى

حين كما كان ينبغي بصفة خاصة تحمل سلسلة من الهجمات التي لم تكن تتوقف لإجبار قادة فيتنام الشمالية على تعديل السلوك غير المقبول، في حين كان مستوى الألم يزداد تدريجياً بالتزامن مع كثافة الضربات.

وهكذا دواليك كان الأساس المنطقي لهذه النظرية قد توضح في سياق مختلف من قبل الإستراتيجي النووي الأميركي "توماس شيلي نج" الذي قال أنّه من أجل أن تكون الضربة فعالة، يجب أن تكون قسرية كالعنف القديم جنباً إلى جنب مع (الإرهاب).

وهكذا، فوفقاً لمنطق هذه الإستراتيجية، وفي مرحلة ما من شأنها أنّ الشيوعيين كانوا يتوقعون فيه الوصول إلى مستوى الألم - الخطر - مع أنهم كانوا يأخذون في الحسبان تجاوز أي مكاسب يمكن الحصول عليها.

كان ذلك من الناحية النظرية، على أية حال، ولكن في الممارسة العملية، والزيادة في المخاطر الإستراتيجية فقد حاولت فيتنام الشمالية صدّ الضربات والدفاع عن ذاتها وقد حققت في ذلك المضمار نتائج متباينة، مثل سابقاتها وحملة القصف التي لا تزال خاضعة للجدل.

بعد ثلاثة عقود لاحقة، كانت الحملات الجوية التي تشكلت قد أصبحت جزءاً أساسياً من الناحية العسكرية الناجحة في الغزو الذي قادته الولايات المتحدة على العراق في عام 2003، وذلك بعد أن أخذت طابعاً رسمياً على نهج جديد في البحث عن قاعدة خروج المغلوب بالضربة الحاسمة، من خلال برنامج منفصل للهجمات ضد القيادة العراقية.

كانت سياسة قطع الرأس - التي تعتبر ذات أشكال مختلفة - دائماً سمة من سمات الحرب، وكان أكثر ما يُعبّر عنها من خلال محاولات قتل زعماء المعارضة ودوائرها الداخلية. كانت تلك السياسة ذات سطحية جذابة لما لها من إشارة سريعة وحل دائم لصراع الإرادات، وذلك ما كان يحدث باستخدام طرق الاغتيال السياسي في الواقع المريب في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، بما في ذلك العشرات من مسؤولي القيصرية الذين اغتيلوا على أيدي أفراد سُذَّج من المنتمين

obeikandl.com

لقائمة الحركة الثورية آنذاك، وقد تكرّر ذلك أيضاً وإن بتأثير مختلف، وقد حلّت محله طرق متنوعة سرعان ما وجدت دولة القمع الموجهة.

وبالمثل ففي أواخر عام 2005، وبعد أربع سنوات من الهجمات الإرهابية على نيويورك والبنتاغون، كان قد أُفيد أن حوالي 75 ٪ من القيادات العليا لتنظيم القاعدة قد تم اعتقالهم أو قتلهم، ولكن الإرهاب رغم ذلك ما زال يزدهر، حيث يبدو أن أكثر من ثلاثين جماعة جديدة من الجماعات الإرهابية، قد ظهرت وهي تضم أكثر من مئة ألف مقاتل، وقد انضمت فصائل أخرى إلى قضية المقاتلين الجهاديين.

وهكذا، فإن إعادة تعريف التحدي قد أدّى لبعض النجاح المحدود خلال السنوات الأخيرة. وقد تم وصف القيادة وتوسيعه ليشمل القيادة والسيطرة، وجماعات الدعم، وكل سينال الثروة، وذلك بعد تحقيق هدفين هما:

- **أولاً:** وقف الزعماء من توجيه الوحدات المسلحة والتواصل مع مواطني تلك الدول ثانية.
- **ثانياً:** كسر إرادتهم. وذلك باستخدام هذا النموذج الصاعق، فقد أجريت عملية قطع الرأس ضد "صدام حسين" في عامي 1991 و2003، وضد القائد الصربي "سلوبودان ميلوسوفيتش" في عام 1999 الأمر الذي ساهم في نجاح أوسع للحملات. لكنه لم يتمكن من المضي بحد ذاته.

وجد قادة الحملات صعوبة في تحقيق قدر من المفاجأة عادة أثناء عملية التنفيذ اللازمة لتحديد مكان وقتل المتطلبات البيئية الذي تؤدي بشكل مستمر على هذه الخطوة؛ فالعدو قد نظم الاتصالات المدمجة في التكرار، وكان من الصعب تعطيلها؛ وقد تتمحور النقاط القلقة من الأضرار الجانبية المقيدة لاستهداف بعض الإستراتيجيات، والآثار النفسية المترتبة على أي ضربات ضد النظام الحاكم والتي بدت بطيئة في الظهور وكان من الصعب تقييمها.

وباختصار، لا شيء يساوي ضربة خروج المغلوب.

مع الاعتماد على التكنولوجيات المتقدمة، فإنّ مفهوم خروج المغلوب بالضربة الحاسمة يتضمن أكثر من مجرد إشارة إلى الحتمية التكنولوجية. ومن السهل

obeikandl.com

استنتاج ذلك من قبل قوى الغرب، وخاصة الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، فهم فيما يتعلق بالسعي إلى خروج المغلوب بالضربة الحاسمة، يفضلون استخدامها، لأنها تعبر عن التفوق، وليس لأن لديهم اعتقاد أنّ ذلك المفهوم يمكن أن يكون ذات مصداقية.

وبعبارة أخرى، فقد تم الاستعاضة عن التكنولوجيا لأغراض إستراتيجية. غير أنّ هذا يعتبر إنكاراً لمفهوم نظرية الإمكانات، ولكنها مسألة العلاقة التي كانت قائمة بين التكنولوجيا الناضجة للتعبير عن الأفكار والمعدات اللازمة للترجمة الفكرية إلى إستراتيجية مستدامة.

يمكن للتكنولوجيا من أجل إحلال الأفكار أن تكون مغرية. ففي البداية، يمكن التخفيف من هذه العملية غير المؤكدة من قبل المخططين وترك الأمر أحياناً لمهمة التفكير. في حين تكون جميع الأمور الأخرى متساوية، مع الجانب التكنولوجي في الحرب والذي من المرجح أن يسود. والأمثلة كثيرة على معركة المنتصر بالتكنولوجيات التي كانت واحدة على الجانب الآخر، حيث لم تكن تلك الانتصارات نابعة من الفرس، والقوس والنشاب، والبارود، والمدفع الرشاش، ونظارات الرؤية الليلية، وغير ذلك. إنما الروح البشرية التي يمكن أن تكون المحارب الأساسي للأسلحة النووية، ولكن ليس من المرجح أن تسود خلالها مثلاً بشكل مباشر، أو من خلال الاعتداء من قبل قوات المشاة التي قد تتعرض إلى عاصفة من نيران المدافع الرشاشة.

وعلاوة على ذلك، يصبح الأمر أكثر سهولة من خلال شراء الأسلحة والطائرات والسفن، وما شابه ذلك مما هو عليه لتطوير المهارات الفردية وتعزيز الأفكار المتفوقة.

ولكن التكنولوجيا لا يمكن أبداً أن تكون كافية في حد ذاتها، على سبيل المثال، وقد شهد التاريخ بعض أفضل التجهيزات التكنولوجية كقوات شاه إيران في عام 1970 وقوات صدام حسين في عام 1990.

وأياً كان شكلها الناري، ومعلومات نشوئها، وبرامجها، ومهما كانت

التكنولوجيا، فإنها وحدها لا يمكن أبداً أن تواجه التحدي المتمثل في الرد على هذه الإستراتيجية؟

قد تكون الأفكار الإستراتيجية منسقة بعناية، بل وقد يتعدى الأمر لظهور مزيج من الأفكار والتكنولوجيا وربما تكون قد أدت إلى ظهور نسخة جديدة من قاعدة خروج المغلوب بالضربة الحاسمة في العقود الأخيرة، في شكل ما يسمى "إستراتيجية الغارات" والذي يشارك فيه مقرر الأثر المنشود من خلال تفكير دقيق، واضح ومقيد، وبالوقت المحدود.

ويمكن أن تشمل الأمثلة هنا على إسرائيل في غارة "عنتيبي" عام 1976 وعام 1981 في ضرب المفاعل النووي العراقي، وما قامت به الولايات المتحدة عام 1986 في الهجوم ضد ليبيا واستهداف الزعيم "معمر القذافي"، والقاعدة في عام 2001 إثر توجيه ضربات جوية لمدينة نيويورك وواشنطن.

على الرغم من المخاوف المذكورة أعلاه، يمكن لمفهوم الإستراتيجية الغارة أن يكون لها أيضاً مكاناً لعمليات قطع الرأس، وهذا ما حدث مع الولايات المتحدة في محاولات اغتيال صدام حسين وابنيه وأعضاء آخرين من البعثيين الهرمين، وذلك باستخدام ضربات جوية خلال عملية تحرير العراق في عام 2003، وربما يكون ذلك بمثابة تجربة استفاد منها الإسرائيليون بتأكيد مفهوم السعي لتطبيق القوة، ولا سيما مع مقتل زعيم حركة حماس الشيخ "أحمد ياسين" بواسطة طائرات الهليكوبتر المقاتلة في شهر آذار / مارس عام 2004.

كان مقتل الشيخ "أحمد ياسين" يبدو في ظاهر الأمر خدمة لمصالح إسرائيل في المدى القصير على الأقل، لكنه في حقيقة الأمر، دفع برجال تنظيم "حماس" الرئيسيين الآخرين إلى الاختباء، وإلى التوقف عن استخدام الاتصالات مثل الهواتف الخلوية، مما يحد من قدرتهم على إدارة العمليات الإرهابية بنظر إسرائيل كما أن هناك أدلة على أن الحرب التقليدية للوحدات التي تفقد 25 ٪ أو أكثر من قدراتها أو من قياداتها ولفترة محدودة تصبح غير فعالة.

هناك حجج مؤيدة أو معارضة لسياسة قطع الرأس. فمن جهة، يقول مسؤولون

إسرائيليون: إن اغتيال قادة العدو قد يكون بمثابة زرع الألغام في إطار المنظمات الإرهابية، ويقلل من احتمال أنّ مواطنيها سيتمكنون من تفجيرها من قبل انتحاريين. وعلاوة على ذلك، فباستخدام أعداد صغيرة من الأسلحة الدقيقة واستهداف أفراد معينين ومعاقبتهم، ثمّة من يعتقد أن هذه القضية هي المسؤولة عن أعمال العدوان، ويقلل من الأضرار الجانبية. ولكن عندما يكون الهدف شخصاً مثل "صدام حسين" فالأمر هنا يبدو مختلفاً، لأنه يتعلق بنتيجة ذات طابع إستراتيجي.

وفي المقابل، يحمل الاغتيال جوانب قانونية وأخلاقية جادة، سيما عندما يكون الأمر في حالة حرب رسمية لا وجود لها بين أطراف النزاع. كما أنّه ليس من الواضح أنّ سياسة قطع الرأس في نهاية المطاف ستكون فعالة. إن ارتكاب جريمة قتل الشيخ "أحمد ياسين" الذي يعتبر خالياً من أية معايير أخلاقية، قد تعرقل خطط المنظمة في الأجل القصير، ولكن القادة الجدد قد يظهرون بسرعة وبشكل أكثر احترافاً وحقداً، وعادةً ما سيكونون على نفس الدرجة - إن لم يكن أكثر - من خبرة أسلافهم.

ولكن حتى الآن، لا توجد أدلة تذكر على وجود حلول طويلة الأجل.

جاء خطف وقتل أحد عشر رياضياً إسرائيلياً من قبل عناصر من منظمة التحرير الفلسطينية عام 1972 في دورة الألعاب الأولمبية في ميونيخ، كعملية انتقامية من الحملة التي قامت بها الاستخبارات الإسرائيلية، والموساد على مدى السنوات القليلة، الذين نفّذوا الكثير من عمليات قتل الأفراد وتعقب بعض الشخصيات القيادية الفلسطينية واغتيالهم، وذلك وفقاً لما جاء في ذلك الوقت على لسان أعضاء في الموساد، وعلى الأخص على لسان إيهود باراك الذي أصبح رئيساً للوزراء فيما بعد وهو الذي شارك شخصياً في بعض الاغتيالات، وكان ذلك من خلال نيّة إسرائيل لضرب الإرهاب عن طريق كسر إرادة أولئك الذين ما زالوا على قيد الحياة.

ويستند هذا الهدف على وقوع مكافحة الإرهاب الإسرائيلي منذ ذلك الحين، في حين أنّ الحملات التي شنّها الموساد لا يمكن الحكم عليها بالفشل.

من غير الواضح ما إذا كانت سياسة الاغتيالات تعتبر مثالاً عن استخدام القيادات للتكنولوجيا وأن تفعل شيئاً لأنّنا لا يمكن، ولا ينبغي القول ما إذا كانت مشروعة وقابلة للحياة من حيث المفهوم العملياتي.

ولكن هذا القلق لا ينبغي أن يسمح لتحويل الانتباه عن احتمال غارات ذات دقة عالية بصورة قانونية بحيث تحدد مراكز الثقل الإستراتيجي للعدو من أجل تحقيق نتيجة سريعة الأثر والاستيلاء عليها والاحتفاظ بالأرض مع رد سريع وحاسم، والتي ستؤدي بالتالي إلى نتائج إنسانية نسبياً، حيث أن نظرية خروج المغلوب تمثل ضربة مثالية للتعبير عن المعركة الحاسمة.

على الرغم من وجود التناقض في القتال في الحرب العالمية الثانية الملحوظ والناجم عن مفهوم المعركة الحاسمة مع مرور الزمن حيث إكراه الجيش للاستيلاء على الأرض.

يأتي دافع الاستيلاء على الأرض في البداية كإجرّاء تكتيكي قتالي في واقع الحرب، ونظراً للإستراتيجية، فإنّ ذلك الدافع يعتبر قديماً قدم الحرب نفسها، بل وبالنسبة للقوات البرية، فقد كان هناك الكثير من العقيدة باعتبارها من المسلّمات، والتي يبدو أنّ الأساس المنطقي لذلك إنّما هو أمر واضح لا يحتاج إلى تفسير.

هناك بضعة عوامل تكتيكية أكثر أهمية للجندي المنبطح فوق الأرض المرتفعة والتي تكون عادة الأفضل في الميدان؛ حيث تكون الأرض المرتفعة بعيدة عن مراقبة العدو وأكثر أمناً من الأرض المفتوحة؛ حيث يمكن التحكم بحركة السكان والخطوط وكذلك الاستيلاء على مواقع معينة، حيث يمكن تحقيق أثر إستراتيجي في حد ذاته، وما إلى ذلك.

هناك أيضاً حقيقة بديهية بأنّ البشر يعتمدون تماماً على الأرض من أجل وجودهم. ولذلك فإنّنا بحاجة إلى أن نقف فوقها، كما هو الحال مع الكثير من المعتقدات التي تبدو كإستراتيجية مقدسة، ومحاولات لترجمة طموحاتها إلى نتائج يمكن أن تولّد مجموعة من المخادعة غير المتوقعة من المسائل المعقدة. وفي هذا المثال، تعتبر من

obeikandl.com

أهم الأهداف الإستراتيجية ذات الصلة، وكثيرة الدمار والاستنزاف.

يعتبر تحرك الجيوش في المقام الأول على سطح ثنائي الأبعاد، فقد جرت العادة في حملة من خلال العمل في طريقها من خلال تسلسل خطي من الأهداف، والتي ربما كان بعضها لا قيمة إستراتيجية له. ذلك لأنّه، بالطبع، يجب أن تكون الإستراتيجية مبسّطة وتشير إلى أنّ كل محاولة للاستيلاء على الأرض يجب أن تعقد دائماً لتلبية أعلى مراتب المنطق الإستراتيجي.

قد تكون هناك مجموعة واسعة من الانتهازيين، ولكن مع ذلك، يمكن لوجود أسباب قاهرة ممن يريدون احتلال بعض قطع الأراضي في حد ذاتها قد يكون غير ذي صلة بأهداف شاملة، ولكن الذي يعد ميزة على المدى القصير، مثل عرض أعلى للموقف من خلالها إطلاق المناورات، أو توفير إمكانية الحصول على مأوى أو طعام. وفي حقيقة الأمر، فإنّ ذلك يعتبر كحقيقة من حقائق الحياة التي تكاد تكون حتميّة في العمليات التي يجب أن تظل مستجيبة لروابط الجغرافيا، وبغض النظر عن أي اعتبار آخر.

وببساطة، فإنّ ما يعني أنّه من أجل التوصل، مثلاً إلى الهدف النهائي "د"، للقوات البرية، على العكس من القوات البحرية والجوية، والتي تتبنّى موضوع الاحتلال أولاً، ولكن لفترة قصيرة، وذلك قبل تحقيق النقطة "أ" و"ب" و"ج".

إنّ التقدم من خلال تلك النقاط، وعبر الأرض التي تتميز بالحملات الموسعة ينطوي على قدر كبير من المناورة، والعديد من الارتباطات، وربما في نهاية المطاف تكون ذات خاتمة مرضية في المعركة الحاسمة. عندما أراد "الإسكندر الأكبر" في عام 334 ق.م توسيع حدود إمبراطوريته، فقد بدا الأمر معقولاً جداً أن يبدأ من الحدود المقدونية حيث بنى له وطناً، ومن ثمّ عمل بشكل تدريجي على التقدم من خلال أجنحة شرق آسيا الصغرى، وبلاد فارس، والهند.

وهذا ما حدث بالمثل، عندما بدأ الحلفاء تحرير أوروبا في عام 1944 حيث جاؤوا إلى شواطئ النورماندي، ومن ثم قاموا بتنفيذ عمليات هبوط مظلي في أقرب نقطة إلى قواعدهم على الأرض، ومن خلالها قاتلوا في طريقهم عبر فرنسا والبلدان

المنخفضة متقدمين نحو هدفهم ألمانيا. على عكس الهجوم الجوي والبحري للجيوش الحليفة التي تتبع خيار التقدم على التوالي.

ولكن يمكن العثور على بعض الاستثناءات في المقام الأول عند مناورات التطويق، ففي كثير من الأحيان يكون الهواء أو الهبوط بالمظلة البرمائية فوق أرض العدو، قد نبّه قوات العدو للتجمع بسرعة وراء خطوط المواجهة القائمة أو لإقامة خط جديد. هذا ما حدث مع المظلي "دوغلاس ماك آرثر" الذي هبط في مؤخرة الجيش الكوري الشمالي قرب "إينشون" في شهر أيلول من عام 1950 والذي يعتبر نموذجاً لما سبق، في حين كان التنقل في الجزيرة الواقعة في منطقة جنوب غرب المحيط الهادئ في الحرب العالمية الثانية، وحيث كان بعض معاقل العدو الذي تبلغ على طول الخط مقدمة له من أستراليا إلى اليابان وقد تم تجاوزها ببساطة.

من خلال هذه الأمثلة، فإن الاستثناء لا القاعدة يكمن في تاريخ الحملات البرية المتتابعة والتي تكون في الغالب واحدة من العمليات.

في الوقت نفسه، وعلى غرار كل فكرة إستراتيجية أخرى، تكون الحاجة ملحة لاتخاذ إجرّاء في الميدان، ولكن ينبغي أن يكون ذلك موضع تساؤل، وليس مجرد قبول. فعندما تنتهي سبُل العلاقة بين الوسائل المعتادة قبل الشروع في عمل ما، وبعد ذلك، بغض النظر عما إذا كانت الوسائل ستقود إلى حملة كبيرة أو يمكن تنفيذ المعركة الحاسمة أو أن تكون معزولة النيران، فالطبيعة الأساسية للحرب لا ينبغي أبداً وضعها طيّ النسيان. فالحرب هي في النهاية صراع إرادات، ومثل أي عملية عسكرية، فإنّ مجرد الاستيلاء على الأرض لا يعني أنّه من الضروري الحصول على النتيجة المرجوة كما لن تكون بالضرورة في كسر الروح المعنوية للعدو. ولذلك ينبغي أن ينتهي الخلط بين الطرق المتبعة.

يكمن تركيز الجيوش الحديثة في الاستمرار بالاستيلاء على الأرض كغاية في حد ذاته - كما يمثل ذلك تلقائياً الهدف الإستراتيجي - وربما يمكن أن يعزى الأمر إلى قياس مقدار التفوق من خلال المساحات المحتلة من الأرض. ولكن الظروف تغيّرت من صياغة البحث.

obeikandi.com

عندما حلّل الخبير الإستراتيجي "كلاوس" الإستراتيجية في أوائل القرن التاسع عشر، كان من المعقول القول، كما فعل، إنّ تدمير جيش العدو هو الهدف الأسمى للحرب، لأنّه في تلك الحقبة للجيوش غالباً ما تجسّد الإرادة الوطنية، ويتبع ذلك أنّ النموذج الأكثر فعالية للمكافحة سيقوم على إبادة الجنود والآلات. هذا هو النموذج الذي يجعل العدو يخضعه لإرادتنا، وكان من المقرّر أن لن يكون لديه أي خيار بدلاً من فرض (الإكراه - ولديه خيار التنازل)، حيث يفضّل إجرّاء عمليات متتابعة مما أدى إلى معارك حاسمة، أدّت بدورها إلى خسائر فادحة.

هناك نوع مماثل من المنطق الواضح في تعريف آلية الدمار الشائعة المرتبطة بنسخة الحرب. لكن هذا التعريف يستند إلى عدد الجنود في القوات المتعارضة، وينطبق هذا في العديد من الأمثلة كما حدث مع "نابليون" في بعض الأحيان، والحرب الأهلية الأمريكية، والحرب العالمية الأولى، والحرب الأهلية الروسية، والحرب الأهلية الإسبانية، والحرب العالمية الثانية والحرب الكورية، وفيتنام، والحرب العراقية الإيرانية. ومع ذلك، ففي العصر الحديث اليوم، فإنّ نوعية الأسلحة ودقّتها وسرعتها تلعب دوراً هاماً في المسافات الطويلة والمناورات المختلفة، وطبيعة ما ستلحقه من الدمار، في النواحي التالية - على الأقل - إذا كان الجيش كبيراً، أو متوسطاً، فمن المرجح أن تكون الهزيمة صغيرة، وذات جودة عالية في الجيش، حيث لا جدوى من وجود أعداد كبيرة إذا لم تكن هناك حاجة لوجود تلك القوات، والحق يقال، ففي ظروف التكنولوجيا يمكن أن يطغى الدمار على شكل أوسع، كما هو الحال في قصف المدافع بعيدة المدى، وصواريخ الأرض أرض وقذائف الجو أرض والذي تطبقه القوات وتفضله على أسلحة الجيش بعيدة المدى، لأنّها تفضل استخدام أسلحة دقيقة التصويب ولديها سرعة المناورة لإحداث الدمار وهذا قد يؤدي إلى استنزاف الموضوع.

يكاد المستوى العالي من الاستنزاف يكون أمراً حتمياً، ولكن لا يكون حصرياً مرتبطاً بمسألة الاستيلاء على الأرض، وإحداث الدمار، ذلك لأن هذا النوع من الحروب قد أصبح طريقة غير مقبولة في السعي إلى تحقيق الأهداف.

لقد كانت الحرب التي قادتها الولايات المتحدة في الهند الصينية منذ عام 1962 حتى 1975 نقطة تحول.

تُعتبر حرب فيتنام درساً في إستراتيجية الارتباك. ذلك لأن الولايات المتحدة، ولسبب غير مؤكد في كثير من الأحيان، كانت تفقد بوصلة تحديد العديد من القضايا الواضحة. في حين كانت تعتقد بأنّ الحكومات الفيتنامية الجنوبية بما فيها القوات العسكرية كانت فاسدة، وهشّة وذات شرعية مشكوك فيها، والعديد من الوحدات العسكرية كانت غير كفوءة، بل وغير مستعدة للقتال.

في ذلك الوقت كان التزام الولايات المتحدة قد بدأ ينمو في أوائل الستينيات، في حين كان بعض كبار المسؤولين الأميركيين جاهلين إلى حد كبير بطبيعة البلد وجغرافيته، وثقافته، وقيمه وتاريخه، بل وموقعه. وفي أواخر العام 1965 لم يوضح الرئيس الأمريكي "ليندون جونسون" أنّ هناك إستراتيجية متماسكة للصراع بل كان يخوض عملية تصعيد ذات طابع لا يخلو من الغرابة في العمليات القتالية التي جاءت لتعبر عن عدم وجود اتجاه للسياسة العامة للحرب.

وكانت النتيجة مرة أخرى في الشكل الذي كان دون النظام الأساسي لهذه الإستراتيجية.

كانت قوات المشاة تحت قيادة الجنرال "ويليام يسمور"، وقد اعتمدت الولايات المتحدة والقوات المتحالفة معها في النهاية على إستراتيجية للبحث وتدمير واسع النطاق لهزيمة الجيش الشيوعي (الذي يتألف من فيتنام الشمالية وجنود الفيتكونغ) في جنوب فيتنام. وهكذا، تمّ تنفيذ سلسلة التدمير خلال مدة محدودة، بما في ذلك تنفيذ عمليات واسعة النطاق في الأقاليم الشيوعية التي يسيطر عليها الإرهاب، حيث شُنّت عملية تدمير واسعة النطاق ومن مكان آمن - وبالتالي معزول ثقافيًا - حيث معسكرات القاعدة الأمريكية.

كان الهدف هو تدمير معاقل العدو، والقبض على لوازم وقطع خطوط الاتصال، وتشجعيه على الاستسلام، وقتل الجنود ومؤيديهم.

لا شكّ أنّ هذا النوع من الحروب كان يُعتبر كنسخة من حرب الاستنزاف التي

كانت تتصل بالظروف الموضوعية في فيتنام، مع بعض المبالغة في هدف مؤسسات الاستثمار الحربي الذي كان واضح المعالم، لكن المطلوب كان يكمن في المصداقية السياسية العليا في الواقع، وربما كان ذلك مناسباً.

في الواقع، كان البحث والتدمير أمراً مشكوكاً فيه عملياً، مع تبلّد الحس الثقافي، واللاعقلانية. فقد كان التعليق المزعوم "في أنّه لدينا أوامر لتدمير هذه القرية" يعتبر من أبشع المشاعر، ثمّ جاءت الولايات المتحدة لتحديد نهج الحرب، جنباً إلى جنب مع الأراضي سيئة السمعة. ورداً على سؤال حول وسائل الإعلام الفيتنامية في ارتفاع الخسائر البشرية من الآسيويين، وقد عبرت الولايات المتحدة على أنها لا تفكر في الموت بالطريقة التي تؤدى بها. لكن الأثر التدميري كان أبلغ على الأجانب الذين ينهبون الكثير من مصالح المدنيين الفيتناميين الجنوبيين، المصالح التي يزعمون أنّها تخدم.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان رد الأمريكان يكمن في التحليل الكمي للأنشطة التنفيذية التي كانت هي السائدة في وزارة الدفاع، والتي وجهت من قبل وزير الدفاع آنذاك "روبرت مكنمارا" والموظفين التابعين له مباشرة، حيث بدأ القادة الميدانيون الأمريكيون استخدام الإحصاءات أولاً، كإجرّاء للتحقيق، ومن ثمّ كانت الخطوة الثانية بحكم الواقع الإستراتيجي.

بعد ذلك، بدأ الإعداد لتصبح غاية في حد ذاتها ضمن يومية قوائم "الإنجازات" وقد جاءت برقية الإبلاغ من "سايغون" إلى واشنطن لتقول: لقد دمّر الكثير من الجسور، والعديد من المواد الغذائية، وتمّ القبض على مخابئ للأسلحة، وقد عاد ذلك الهدوء إلى العديد من القرى، والأكثر سخافة أنّ العديد من جنود العدو قد قتلوا فيها.

قرارات الحرب:

وهكذا، فنظراً للثغرة الإستراتيجية على المستوى الأعلى في حكومة "مكنامارا" الإدارية كانت قد بالغت في تحديد حجم الحرب، فقد كان من شبه المحتم أن طموح القادة الميدانيين يكمن في أنّهم سيبدؤون بانتهاج سياسة تضخيم الأرقام في تقاريرهم. والأسوأ من تلك الأرقام ما كان يرد خاصة في التقارير اليومية عن عدد

الشيوعيين الذين لقوا مصرعهم خلال المعارك، وقد كانوا ينظرون إلى تلك الضحايا على اعتبار أنها كانت تعتبر مؤشراً للتقدم.

وكما أنّ التكنولوجيا قد حلّت محلّ إستراتيجية هجوم الحلفاء الانتحاري في الحرب العالمية الثانية، فقد حلّت دُشم الأكياس محل الإستراتيجية في فيتنام، لكنه في المقابل، فقد كانت تجربة الولايات المتحدة في الهند الصينية بمثابة دراسة لحالة الارتباك الإستراتيجي.

وقبل أن نختتم هذه المناقشة من مفهوم الاستيلاء على الأرض وتحديد خصائص الدمار والاستنزاف، فإنّ اثنتين من الملاحظات الختامية ينبغي أن تتمّ الإشارة لهما وهما:

- **أولاً:** القلق من وجود نماذج بديلة للعمليات البرية.
- **ثانياً:** فكرة النصر غير المشروط.

كانت الديناميكية القارية للإستراتيجية قد فتحت المجال لدراسة الشبك، لذلك فإنّه ليس من الغريب من أنّ العسكريين المحترفين قد واصلوا البحث عن بدائل مبتكرة للأمة منذ أمد بعيد، بل أكثر من مجرد إجراء سياسة الاستيلاء على الأرض من خلال سلسلة من العمليات المتتابعة.

وعلى سبيل المثال، فقد كان الضابط في الجيش الأميركي "روبرت" قد اقترح منهجية الجمع بين الأسلحة التي لن تحتاجها الجيوش لاحتلال مناطق رئيسية أو لمواجهة تكتل العدو مباشرة.

وقد اعتقد "روبرت" ضمناً أنّ مفهوم التقييم في كثير من الظروف، سيكون حاسماً لتدمير أصول العدو أو - لفترة قصيرة ولكن بشكل حاسم - توجيه ضربة واحدة لنقطة حيوية، وليس القيام بمحاولة احتلال روتينية والاستيلاء على أراضيه.

تعتبر نظرية "روبرت" العسكرية كنموذج مذهبي متقدم - من الناحية التكنولوجية - في استخدام القوات البرية السريعة الحركة وكذلك الدعم الجوي والبري لجعل المركبات السريعة والمناورة واحدة من الخصائص الأساسية. كما أنّه من شأنها أن تعمل ككل متكامل مع الضربة الجوية والقوات على الأرض مع عناصر جيدة

obeikandl.com

التدريب تقوم - في أي وقت من الأوقات - بمواجهة تصرفات العدو المفاجئة ويمكنها أن تكون حيث ينبغي أن يركز العدو، كيفية قيامه بتحديد هجومه، حيث تكون تلك القوات على درجة عالية من الترقب والاحتياطات فتهاجم بدقة بواسطة الأسلحة التي تُطلق من المنصات الجوية أولاً، والتي تعمل على تقليص مسافات المواجهة.

كان ينبغي لهذه القوى أن تنفّذ مهامها وتعود إلى الأرض، وليس من شأنها أن تقوم بما هو أكثر من طاقتها وبما تمتلك من القوة والقدرة على التركيز، ولكنها أيضاً كانت تترك نفسها عرضة لهجمات معادية حيث تكون أحياناً أقوى على القوات البرية من حيث استغلال سرعة المناورة. وثمّة نماذج تكون واضحة فيما يتعلق بهذا النوع من العمليات، وذلك من خلال الغزو الذي قادته الولايات المتحدة على أفغانستان بين عامي 2001 إلى عام 2002 والغزو على العراق عام 2003.

وبالمناسبة، فبالإضافة إلى تحدي الحكمة التقليدية، فقد كان مفهوم "روبرت" العام هو مفهوم واحد ويمثل الاستجابة المركزة للنمو السريع وتلك الاستجابة تعتبر سمة بارزة من سمات الحروب الحديثة، أو في أن تكون سمة مشتتة دونما تخطيط في ميدان المعركة.

كانت الفكرة العامة عن الخطط القتالية التنفيذية في مواجهة الأعداء المتنافسين فيما بينهم تتكون - وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى - من اصطفاف الجيوش والقوات البحرية تقريباً في مواجهة بعضها بعضاً قبل أن تشتبك فيما بينها وتفتح جهنم الجبهة، وقد كانت إحدى السمات المميزة للقائد الكبير في حقل المعركة تكمن في مستوى قدرته على فهم طبيعة الحركة، وسرعة المناورة والتكتيك السريع، وكان لحشد القوات في مكان واحد وفي وقت واحد أثر بالغ على النتيجة، وذلك من أجل تحقيق أكبر قدر من التركيز.

إنّ ساحات القتال هي التي تحدد خط المواجهة، بطبيعة الحال، بل وتتنافس مع الجيوش المنتشرة على جانبي الجبهة، وعلى امتداد معظم المعارك التي وقعت على جبهات الحرب العالمية الأولى، وإن كان ما حدث على الجبهة الغربية كان أفضل مثال، فقد كانت المناورات الموازية له، بطبيعة الحال، هي السمة البارزة من سمات

obeikandl.com

هذا النوع من القتال في الحرب، ولكنها عادة لا تسعى إلى تفريق القتال، وإنّما للحصول على ميزة التطويق في ساحة المعركة من قبل العدو القائم على طول خط الجبهة.

ولكن، حتى في الحرب العالمية الثانية، فإنّ القدرة على المناورة بحلول ذلك الوقت كان قد تعزّز بأمر من حجمها، مع ميلها إلى خوض مسارح العمليات التي تحددها خطوط القتال فوق الجبهات، مثل الجبهات المفتوحة في أوروبا الغربية والجبهة الشرقية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية.

كانت هناك فائدة كبيرة فيما يتعلق بنهج التعامل مع العدو إلى حد كبير، وهذا ما حدث أثناء الحرب الكورية الجنوبية في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين، وكذلك، ما حدث في عدم الكفاءة التشغيلية من قبل القوات الإيرانية والعراقية في الثمانينيات من القرن ذاته.

ولكن الولايات المتحدة خلال الحرب في الهند الصينية في عام 1960، وكذلك القتال في فيتنام الجنوبية، كانت قد تميزت في توزيع تجمعات القوة، وبالتالي، فمن خلال توزيعها في ساحات القتال كان الهجوم يبدو كثيفاً ومركزاً، ولكن ما كان يعيق تحقيق النتائج المرجوة هو وجود "الفيتكونغ". والفيتناميين الشماليين والجنود الذين قد ينظروا بشكل مفاجئ وغير محسوب وفي أي مكان، ابتداءً من حقول الأرز والغابات وحتى شوارع وأروقة المدن، وكذلك في جميع أنحاء البلاد طولاً وعرضاً، وكانوا بذلك يتصيدون خصومهم، وبل وكان بإمكانهم أن ينصبوا لهم الشراك متى عثروا على تجمعاتهم، ومن هنا نجد أنه لا تعريف يمكن إطلاقه على تلك الحالات المنتشرة على طول خطوط القتال. في حين كانت الضربات الاستباقية تنفَّذ خلف خطوط العدو، أما مناورات التطويق الناجحة فقد كانت استثناء، ولكنها في الوقت الحالي قد أصبحت هي القاعدة.

وهذا ما حدث في الحملات العسكرية اللاحقة في كل من الشرق الأوسط، ومنطقة البلقان ووسط آسيا، في حين أصبح النموذج التخطيطي هو الشكل السائد لقوة التصرف فوق جبهات القتال من أجل الاستيلاء على الأراضي كبديل جذري

obeikandl.com

لإجراء الاستيلاء على إرادة العدو ونهج عقليته العسكرية على الأرض، وقد أظهرت عمليات مراقبة العمليات الجنوبية أثناء الحرب على العراق صحة تلك الطريقة، إلى حد كبير، ولكن لم يتم إعلان ذلك على الملأ لاعتبارات خاصة بسياسات تلك الحرب المعلنة، لقد كانت النتائج أكثر من رائعة في تلك الحملات التي استهدفت شتّى البنى الرئيسية للعراق، وذلك في الفترة من الممتدة من شهر آب / أغسطس عام 1992 وحتى شهر آذار / مارس عام 2003.

كان المرصد الحربي في الجنوب قد أعلن وأشرف على شن الحرب ضد الرئيس العراقي السابق "صدام حسين" للتخلص من نظامه على الرغم من أنّ رد القيادة العراقية كان آنذاك بأنّ الهجوم على العراق يعتبر خرقاً لقرارات الأمم المتحدة، لكن أحداً لم يسمع ذلك، بل وتسارعت وتيرة المشاركة لإنجاح تطبيق منطقة حظر طيران لجميع الحرف الجوية العراقية في المنطقة الواقعة جنوب خط العرض 330 شمالاً، لتتسع بعد ذلك لتشمل كل الفضاء الذي كانت القوات الجوية لحلف شمال الأطلسي تحاصره، والتي بدأت بالتحليق في المقام الأول انطلاقاً من خارج تركيا ومن على حاملات الطائرات في الخليج العربي.

ليس هناك من شكّ في أنّه إذا كانت لجنة قيادة القوى الدولية المشتركة، قد اتخذت خطوة الحظر الجوي، فإنّه من الممكن في تلك الحالة أن تكون قد ساهمت في توسيع نطاق عملياتها لتشمل مساحة كبيرة من خطوط حركة المركبات.

وفي الواقع، فقد كانت القوات الجوية التي تعمل انطلاقاً من قواعدها في شتّى أقاليم العراق المحتل تقدر بنحو ثلث مساحة العراق.

كان مفهوم الميزان العام للعمليات، ومراقبة العمليات الجنوبية يخضع لقيود نظرية وعملية، تلك القيود التي تنشأ في حال وجود قيود على حجم عمليات القوات البرية التي يمكن تنفيذها على وجه السرعة جواً في المنطقة المتنازع عليها، بإضافة إلى قيود أخرى قد تنشأ من ناحية القصور من عدم وجود الناس على الأرض. ولكن تلك القيود ككل يمكنها أن تشير إلى أنّه يمكننا أن نتوقع مختلف التحديات المستمرة لهذه الاتفاقية التنظيمية وكذلك الحكمة منها، ومن مختلف أنواع العمليات المنفذة

على الأرض.

وفي الوقت نفسه، فإنّ حقيقة النتائج الواقعة سوف تطالب قوات الدفاع بضرورة الاحتفاظ بالقدرة على الاستمرار في الاستيلاء على الأرض وبل التقدم لقضم أراض جديدة. لكن تلك القدرة ينبغي أن تتجدّد باستمرار إلا إذا كانت هناك صلة ترتبط بالأهداف الإستراتيجية المنشودة.

وفي مقام آخر، فقد نفّذ عدد قليل من العمليات العسكرية الأكثر احترافاً منذ الحرب العالمية الثانية، كما هو الحال خلال احتلال إحدى المقاطعات في فيتنام من قبل فرقة أسترالية وذلك بين عامي 1966 وحتى 1971 على الرغم من انسحاب الكثير من الوحدات المشاركة آنذاك، لكن ثوار "الفيتكونغ" سرعان ما أدوا تنظيمهم وتجمعهم في تلك المقاطعة حتى استأنفوا القتال من جديد إلى أن استطاعوا بسط السيطرة الكاملة على هذه المقاطعة.

وهكذا، فلأنّ الغايات كانت صحيحة، والتي حدّدتها الإستراتيجية الأميركية التي تدير الحرب، ولأنّ الفكرة الرئيسية الأهم هي دحر العدو وكسر إرادته وتطويعه، فإنّ فكر الهيمنة الإقليمية - كما مر معنا - يعتبر غير صحيح. مثلها في ذلك مثل النظر إلى الإستراتيجية ككل، فالإستراتيجية التي تعتمد على الجوانب المادية للاحتلال وعلى الاستيلاء على الأرض فقط، لا يمكن اعتبارها على أنّها إستراتيجية ثابتة السلطة.

الانتصار غير المشروط:

يكون النصر مشروطاً في بعض الأحيان، ومن المفترض أن يكون تلقائياً بعد الاشتراك بسلسلة معارك حاسمة، أو من مجموعة عمليات محدودة بدلاً من خوض الحرب. ولكن مصطلح "النصر" قد لا يحمل مؤهلات الفوز الكامل بالضرورة: فهو يعني قلب الطاولة على العدو وتحقيق ما يدعى بكسر الإرادة؛ وقد يتطور الأمر إلى إخضاع الطرف المهزوم لشروط قاسية، والتي يمكن أن يفرضها المنتصرين على المهزومين الذين قبلوا أيضاً بهزيمة الدولة.

كان النصر يعتبر بمثابة النصر المؤزّر في العصر الكلاسيكي فقط حين يستطيع

الطرف المنتصر ذبح كل الذكور من الطرف الآخر وتدمير بنيته السياسية بالكامل؛ ولكن، فيما بعد، فقد أصبح النصر في الحرب العالمية الثانية يعني الاحتلال والراديكالية السياسية والاجتماعية، قد يتعدى الأمر إلى إعادة الإعمار وذلك كما حدث في ألمانيا واليابان.

ولكن، ففي الوقت الذي ربما يكون فيه الحليف ذا قدرة كبيرة على الجذب؛ فإنّ فكرة النصر غير المشروط تزيد من تعقيد المشكلة.

كانت الانتصارات المشروطة في الماضي نادرة الحدوث نسبياً؛ ولكنها في العالم المعاصر أصبحت تعتبر مشروعاً بحد ذاتها كنتيجة لغلبة المنتصر على الرغم من أنّه قد يكون تحقيقها صعباً للغاية، بل ويمنع المفكرين العسكريين في السعي من أجلها، ويكاد يكون من المستحيل تحقيقها.

أما في الحرب العالمية الثانية، فقد كان حدوث مثل ذلك نصر غير مشروط يعتبر استثناءً نادراً، ولكن - حتى ذلك الحين - كان النصر غير المشروط، ولم يصبح نصر الحلفاء الهدف السياسي المعلن، إلا في منتصف الحرب، ولمرة واحدة وكاملة، كرد على فساد النظام النازي الذي قد أصبح واضحاً، وكان من الأولويات أن يتم تطهيره بالكامل وإعادة بناء القيم الألمانية بشكل مقبول.

لم يستطع أحد من أطراف النزاع لاحقاً في الصراعات الكبرى، كصراع كوريا وفيتنام وإيران والعراق، من صياغة الهدف المنشود بإقامة دولة مطلقة عن بعد، بل قاموا بدلاً من ذلك بإجرّاء تسوية أكثر تواضعاً من ذلك بكثير، الأمر الذي أحدث نتائج واقعية، مثل العودة إلى ما قبل الحرب على الوضع الراهن أو الجغرافية، وذلك من أجل حفظ ماء الوجه للانسحاب.

ولذلك، فقد كانت صعوبات حساب الحروب الحديثة، والضغوط الناجمة عن العولمة المتزايدة الإيكولوجية والنظم السياسية التي تعمل ضد أهداف أخرى أكثر تطرفاً حتى، ولربما كان التنافس الأشد في التاريخ، هو ما جرى خلال الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، ولذلك فإنّ تفسير سياسة الولايات المتحدة لم يكن شرطاً من دون شروط النصر، بل كانت السياسة تقضي بالاحتواء.

وهكذا، فقد كانت التغطية تعتبر أكثر ضماناً من أي ضمان يحققه النجاح العسكري المنتصر والذي سيكون - من حيث النتيجة - قادراً على فرض التغيير غير المشروط، وهذا ما وجدته الولايات المتحدة عندما كان الأمر واضحاً حين لم تكن قادرة من فرض إرادتها السياسية على الأرض وعلى الأفضليات العراقية، ولكنها لم تتبع الأخلاقيات المهنية بعد الهزيمة الشاملة لجيش "صدام حسين" في أوائل عام 2003.

وباختصار، فإنّ فكرة السعي غير المشروط والتي تعتبر انتصاراً في العصر الحديث، لكنها ليست فقط موضع شك، ولكن يمكن تكون ذات نتائج أكثر خطراً بحيث لا يمكن قبولها:

- فالخطوة الأولى المتمثلة بالردع الأول حتى الآن إنما تركز على "الإرغام" الذي يعتبر واحداً من اثنين من كبرى عبارات العمل الإستراتيجية.
- والخطوة الثانية، المتمثلة في "الإكراه" والتي هي أكثر عرضة لإشراك "الإرغام" ولكن باستخدام التهديد فقط، بدلاً من الطلب، والعنف الجسدي أو غير ذلك من بعض الضغوط الأخرى.

وهكذا، فإنّ ما يميز المفاهيم الرئيسية المرتبطة في القسر هي "الردع" و"المخاطر" الناجمة، والتي تدمج بين مجموعات فرعية من التصعيد التدريجي، بما في ذلك "الذرائعية"، و"التدمير المتبادل" المؤكد.

ومرة أخرى، فكما أنّ هناك اعتراف بأنّ تقسيم المفاهيم يمكن أن تكون مصطنعة، فإنّ هذا التداخل بين الفئتين يعتبر أمراً لا مفرّ منه، ولكن ومع ذلك، لا تزال هذه التقنية مفيدة في المساعدة على موضوع محدد، وبالتالي لفهم النتائج والظروف الناجمة عن ذلك.

تقوم الإستراتيجية في الأصل على الإرغام الذي سيحرم المعارضة من التفاعل، ولذلك، فإنّ للتأثير على طبيعة الأحداث أو المخططات سيكون له عواقب وخيمة وسيحكم عليها بالفشل، ذلك لأنّ التغيير سيُفرض إجبارياً من قبل المنتصر، ولابد أن تكون مقبولة بشكل لا إرادي من جانب المهزومين، بل وينبغي أن تتفق مع الآثار

المرجوّة المحددة من قبل المنتصر وفي التخطيط قبل وقوع الصراع.
ولكن، على الرغم من أنّ الإستراتيجية تقوم على الإكراه، فإنّها على النقيض من ذلك، ستسعى إلى فرض نظريات تغيير مقنعة ذلك لأنّه من المحتمل أن تكون تكاليف المعارضة المتواصلة والمقاومة ستتجاوز الفوائد المرجوّة منها وذلك من خلال التنازل عنها مع الاحتفاظ ببعض النفوذ على مصيرها.
لكنها - على عكس الإرغام القسري وصنع القرار - هي عملية ذات اتجاهين، مع أنّ كل من الزعماء لهم رأي مختلف في أن يقرّروا كيف ومتى ستنتهي الفتنة.
هناك قدر واضح من القسر في كل مرة يتنافس فيها المنتصرون - أو المنصرون - في أيّ محفل وذلك بدءاً من ميدان المعركة وحتى معارك البورصة. وهنا، ينبغي أن نذكر على وجه الخصوص بأنّ العنف قد يكون هو السلاح المفضل للإرهابيين، وكذلك العنف القسري اللامتسامح. وهذا العنف، إنّما يعتبر بمثابة الأداة الكلاسيكية للضعيف ضد القوي، والذي لا لبس فيها على مدى الصراعات السياسية، ذلك لأنّ العنف موجّه بالدرجة الأولى ضد المدنيين، وعلى الأخص في ممارسة الإرهاب، وقد تم ذلك على نطاق واسع، وخاصّة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وهي الفترة التي تزامنت مع حركات التمرّد الشيوعية، ونهاية مجموعة متنوعة من قومية ودينية وحركات الاستقلال.
لقد كانت الطبيعة التفاعلية للعنف والقسرية واضحة وبشكل جليّ في عملية تفجير فندق "الملك داود" في القدس في عام 1946، والذي نفّذت تلك العملية الإرهابية كانت حركة سرية يهودية تدعى "أرغون" وكانت تضم أبرز الشخصيات السياسية والعسكرية والدبلوماسية والتي تسلمت قيادة حكومات إسرائيل لعقود تلت وكان "مناحيم بيغن" من أبرز تلك الشخصيات ومن الذين تبوّؤا منصب رئيس وزراء إسرائيل فيما بعد.
كانت عصابة "أرغون" تسعى منذ ذلك الوقت، لإقامة دولة إسرائيلية في فلسطين التي كانت خاضعة لحكم التاج البريطاني.
أدّى الهجوم الإرهابي على فندق الملك داود إلى مقتل أكثر من تسعين شخصاً،

وكان ذلك الهجوم بداية لسلسلة من الأعمال الإرهابية اللاحقة والتي أدت في نهاية المطاف إلى تنحي الحكومة البريطانية.

ومن هنا، فإنّنا نخلص إلى أنّ الكلفة الباهظة لتلك العمليات الإرهابية للعصابات الصهيونية العنصرية كانت قد تجاوزت ما يمكن للحكومة البريطانية تحمل وزره والاستحقاقات الناجمة، الأمر الذي حفّز قرارها بالانسحاب من فلسطين ومن الأراضي التي كانت تحتلّها إسرائيل في عام 1948. ومن الجدير بالذكر، مع ذلك، فإنّ العمليات العسكرية والإرهابية للعصابات الصهيونية الأخرى - بشكل عام - وكذلك الحملات الحربية كانت أقل نجاحاً.

إذا ما تم تطبيق سياسة الإكراه ببراعة، فإنّه من نافل القول أنّ ذلك لا يمكن أن يُسهّل في وضع حلول للصراع الدائر، بل ثمّة احتمالية لتحوله إلى صراع مفتوح.

ولكن، من المرغوب فيه أنّه في حال التوصل إلى حالة من التوازن الإستراتيجي، فإنّه يمكن من خلالها وضع مجموعة متنوعة من الوسائل والطرق، بما في القوة العسكرية والاقتصادية والدبلوماسية والاجتماعية والثقافية، ولكن لا شيء كان أكثر أهمية من سياسة الردع.

وقد كان المفكر الإستراتيجي العسكري "صن تزو" قد ذكر ذلك في كتابه قبل ما يقارب 2500 سنة مضت، وقد ذكر بأنّه لا يمكن تحقيق التميز والنصر من خلال احتلال أرض المعركة فقط، ولكن لابد من كسر مقاومة العدو دون قتال، ولكن، مع الرغم من مخالفة الكثيرين من المفكرين الإستراتيجيين لنظرية "صن تزو" في تحقيق الهدف المنشود دون قتال، فقد أجابهم "صن تزو" بقوله المأثور الذي كان بمثابة التعبير التقليدي للردع.

ذلك لأنّ التأثير الرادع قد يأخذ المنحى الهجومي من خلال امتلاك القدرة على مهاجمة الخصم بقصد الترويع، أو قد يكون خلق دفاعات رادعة لكونها تمتلك القدرات الوقائية التي من شأنها أن تجعل الطرف الآخر يتكبد كلفة الاعتداء غير المقبول.

يمكن لمفهوم كهذا أن يكون خفياً وغير لائق. بل ويمكن أن يتيح لجميع أطراف

النزاع بعض الفرص للمناورة في إطار وضع إستراتيجية شاملة وكذلك تحقيق قدر من الارتياح، وذلك حسب أسس تعريفها في الانتصار.

ولكن، لا يمكن اعتبار الردع دقيقاً دائماً لأنّه، في دورته، فإنّه يعبر عن أغلظ مستوى من الممكن أن ينطوي على تهديد يحمل بين جنباته العنف الشديد، وذلك كما في الحالة العسكرية العظمى التي تقود البلاد مضطرة ورغم إرادتها إلى ضعف الدولة.

وبدورها، فإنّ الدول الأضعف التي تعرضت للردع، ستبدأ بالمطالبة بردع الردع، لأنّها تعتقد أنّها سوف تكون عرضة للعنف إذا لم يتم الردع. وبعبارة أخرى، على العمل من أجل الردع، والقوة التي قد يتعين تطبيقها من وقت لآخر.

لقد كان أمراً عظيماً من أثينا اعتبار أنّ الضعف الذي أصاب "ميلوس" في عام 416 ق.م قد أدّى إلى تنظيم المطالبة ببعض المطالب السياسية المعينة، من ذلك القائد الأثيني الذي يحمل آثاراً لا تخطئها العين.

وهكذا، فإذا كانت الحرب قد أصبحت أمراً ضرورياً، فإنّها بعد ذلك لن تكون من جانب واحد فقط، ولكن في مرحلة ما بعد الصراع فإنّ العقاب سيكون شديداً. وكما ذكر سابقاً، ففي حال كانت هناك عواقب من عدم الإحجام، فإنّ تلكم العواقب لا يمكن أن تكون أكثر رهبة.

وبالمناسبة، فحين قررت قوى المقاومة في "أثينا" القديمة الثورة على حاضرها، فقد كان ذلك لاعتقادهم بأنّ موقفهم كان مبرراً أخلاقياً وقانونياً. ولذلك كانوا في غالب الأحيان على حق، ولكن لربما ينبغي التفكير بشكل أدق عن تعريف "للنصر" في مثل تلك الظروف التي كانت خارجة عن إرادتها تماماً.

وبنفس القدر، كانت القوى التي لا ترحم تنفّذ إرادتها ضمن مسرحيات التدمير على قوى منافسيها الواحدة تلو الأخرى، وهكذا، كان لابدّ - ولو جزئياً - التركيز على هدف إنشاء الردع على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم القديم، وقد تمّت برهنة ذلك بعد مضي حوالي ثلاثمئة سنة، وبعد هزيمة "روما - قرطاج" في الجزء الثالث والأخير من الحرب البونيّة حوالي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، حيث

كانت "روما" هي القوة العظمى المهيمنة في "إيطاليا"، في حين كانت "قرطاج" تقع في حوض البحر الأبيض المتوسط، ولكن بسبب مصالحها، فقد بدأت المنافسة.

وهكذا، فإنّ الحروب "البونية" - وهو اسم مستمد من كلمة روما - كانت نتيجة سلسلة متتالية من توتر الإستراتيجية الكلاسيكية، وهي الرغبة القوية من الدول لإقامة مناطق النفوذ.

كانت الحرب "البونية" الأولى قد خيضت منذ عام 264 ق.م وحتى عام 241 ق.م، وكانت غلبة النصر "لروما" في نهاية المطاف؛ في حين استعرت الحرب الثانية في الفترة الواقعة منذ عام 218 ق.م إلى عام 202 قبل الميلاد، عندما - من بين أمور أخرى - قام الزعيم القرطاجي "هنبعل" باستخدام الفيلة لعبور جبال الألب وغزو إيطاليا، وقد كانت الفكرة رائعة مع القدرة على المناورة التي جعلت من روما - على الأقل - تبحث عن إستراتيجيات جديدة لمواجهة هكذا موقف، لكنها لا يمكنها أن تمنع روما في تلك الفترة من الظهور مرة أخرى منتصرة، ولكن بعد العديد من النكسات التي أصابت الجهتين في وقت مبكر.

أما الحرب الثالثة فقد دارت رحاها في الفترة الواقعة منذ عام 149 ق.م وحتى عام 146 ق.م وذلك عندما حوصرت قرطاج لمدة ثلاث سنوات حيث أنهى القائد الإغريقي الأصغر "سيبيو" الأمر بالاعتداء العنيف على المدينة. ومن أجل وضع حد نهائي لجميع القرطاجيين وتحدياً لردع الآخرين المحتملين من التشكيك بقدرة روما، ثم قضى "سيبيو" أسبوعين في تدمير مدينة بأكملها، بما في ذلك جميع المباني والجدران، والميناء، ومن ثم ألقى القبض على كافة سكان قرطاجة من الذين حالفهم الحظ في البقاء على قيد الحياة والذي بلغ عددهم أكثر من خمسين ألفاً، حيث تم أسرهم ومن ثم بيعوا في سوق الرق كعبيد، ثم قام بحرق المناطق الريفية المجاورة المزروعة بالملح لإفسادها لكي تصبح أراض غير صالحة للزراعة على عدة سنوات تالية.

وهكذا، فإنّ فرض الردع عبر مظاهر المجازر، قد لا تقتصر على العالم القديم فقط، فقد استولت على الكاتب الإنكليزي الشهير "شكسبير" مشاعر مروعة في مسرحيته "يوليوس قيصر" والتي كتبها عن الأحداث التي وقعت في القرن السادس

ق.م، عندما كان القائد "مارك أنتوني" يدق ناقوس الدعوة إلى الحرب التي أدت فيما بعد إلى كثير من البكاء والفوضى، وإلى حمّى استعار نهش كلاب الحرب. لكن رحمة "أنطونيو" القائد المنافس قد عكست بشكل عام ممارسة السماح للقوات المنتصرة في اندلاع عمليات الذبح والنهب والاغتصاب والدمار كوسيلة لردع محتملة في المستقبل عن غيرها من السياسات.

وفي الآونة الأخيرة، في القرنين العشرين والحادي والعشرين، فقد حثت أمور مشابهة، بل ويمكن القول بأنّ هناك أمثلة أكثر وحشية وترويعاً كانت قد حدثت - ولا تزال - في معظم مناطق العالم ومنها عمليات السلب والنهب والاغتصاب على نطاق واسع، كما حدث في الفترة الواقعة بين بين شهر كانون الأول من عام 1937 وحتى شهر آذار من عام 1938، عندما طغت السياسة المتعمدة للذبح والاغتصاب التي تعرض لها المواطنين الصينيين على يد القوات اليابانية الغازية وكانت النتيجة أن نحو أكثر من 400 مدنياً على الأقل قد فقدوا رؤوسهم، في حين أُخذ الكثيرون كأسرى حرب، وقد وُجد المئات مطعونين، ومحروقين، وكثيرين آخرين كانوا قد دُفنوا أحياء، أو أُحرقوا وحوالي 80000 من النساء والفتيات قد تمّ اغتصابهن بصورة منهجية في كثير من الأحيان، وقد تعرّضن إلى التشويه والقتل، حيث كانت تلك التصرفات الوحشية بمثابة رسالة استخدمها الجيش الياباني لإيصالها لبقية القوات في الصين من أنّ أي مقاومة منها فإنّها ستواجه نفس المصير بل مع وحشية أكثر.

يمكن أن يتم استخدام "الردع" ضمن سلسلة طويلة من أساليب القوة، فالقوة مفهوم نسبي، وتكون كذلك تبعاً للظروف، فحامل البندقية قد يشكل أداة ردع فعالة وذات قدرة على سبيل المثال في حال واجه مجموعة صغيرة من خصوم غير مسلحين.

ولكن من جديد، فإنّ شأنه في ذلك شأن أي قدرة ردع، حيث يلعب حجم قوة الردع الدور الفيصل في المعركة ولكن، إذا كانت أداة الردع المستخدمة - أكانت بندقية يجملها جندي أو سفينة حربية، أو أسطول جوي أو حتى صواريخ مسلحة نووياً - فإنّها لن تؤدي إلا إلى توليد تأثير رادع إذا كان موضوع استخدامها ينال الاهتمام

بالنتائج، ولكن إذا لزم الأمر في بعض الأحيان، فإنّه سيكون للأسلحة النووية قول آخر في حال تم التلويح باستخدامها. ذلك لأن المصداقية هو جوهر الردع.

ومن هنا، تقودنا هذه الملاحظة إلى ثلاث نقاط حرجة يكن تلخيصها كالتالي:

- **النقطة الأولى:** وتكمن في شكل من أشكال استخدام القوة العسكرية للردع والتي يجب أن تكون مناسبة وفقاً لظروف وصعوبة المواقف، وقد تصل إلى التهديد باستخدام الأسلحة النووية - على سبيل المثال - ضد الدول التي ترعى أنشطة إجرامية دولية بسيطة، والتي ستكون خطوة ردع مناسبة، ولكن قد يخشى في هذه الحالة من عدم مصداقية التنفيذ لما قد ينتج من عواقب.
- **النقطة الثانية:** تكمن في أن أي منظمة أو دولة ترغب في توليد تأثير رادع، قد تحتاج لتطبيق القوة من وقت لآخر، قد تحتاج لأن تثبت للخصم المراد ردعه بأنّ لديها عضلات قوية، وأنّها تتمتع بكامل الإرادة لاستخدامها متى شاءت، وقد ذكرنا آنفاً بعض الأمثلة عن العقاب الجماعي، كما حدث من قبل سكان "أثينا"، والرومان، واليابانيين.

في الآونة الأخيرة، كنا نرى أحياناً أنّ إدارة الرئيس الأمريكي "بيل كلينتون" قد تعرضت خلال التسعينيات من القرن العشرين إلى هجمات تعتبر إرهابية، كما كانت تلك الإدارة عرضة للاستغلال بسبب ضعف وجودها العسكري في رد الهجمات ضد المصالح الأمريكية.

وامتداداً لهذا المنطق، فقد تكونت لدى منظمة "القاعدة" جرأة كافية لضرب كل من مدينتي "نيويورك" و"واشنطن" في الحادي عشر من أيلول عام 2001 الأمر الذي أصاب الولايات المتحدة بالذهول لهول تلك الصدمة الرهيبة، هذا عدا عما أصابها من الضعف المعنوي.

وهكذا، فعلى الرغم مما تتمتع به الولايات المتحدة من القوة العسكرية الهائلة، إلاّ أنّ ذلك لم يردع الإرهابيين المزعومين من تنفيذ إرادتهم.

وأخيراً، فإنّه ليس من الضروري لأن يهدف الردع إلى تحقيق التوازن الإستراتيجي أو أن يكون متكافئ القوى. فعلى سبيل المثال، قد يكون من ثقافات مختلفة لكنها

obeikandl.com

على استعداد لقبول ذلك الاختلاف في مستويات التكافؤ التي ستؤدي في حال استخدام الردع إلى وقوع إصابات مختلفة بين الأطراف المتنازعة على حد سواء، والذي سيؤدي في نهاية الأمر إلى فهم واضح لكل منهما، لكن مستوى قبول فهم رسالة الردع يتفاوت، حيث لا ترضخ القوى الكبيرة لإملاءات العصابات أو المنظمات المسلحة حيث يتم النظر إلى حالة من التوازن الإستراتيجي، كما سيتم - وفق ذلك - إنشاء طرق متبادلة للعب عوامل الردع، وقد يكون ذلك باستخدام أي شيء من هذا القبيل، بيدَ أنّ أي سوء فهم واضح يمكن أن يشكل خطراً محتملاً.

يمكن الجزم بأنّ الردع القائم بشكل صريح وضمني لطالما كان إحدى الميزات التي سعى إليها البشر من أجل السيطرة على بعضهم البعض، بل وقد تطغى تلك الميزة على غيرها من السبل في أنّها قد تتحقق من خلال استخدام القوة التقليدية - كما سبق وأشارت إليه بعض الأمثلة السابقة من العصر الكلاسيكي - وبالمثل، ففي العصر الحديث، ولعدة قرون، كانت القوى العالمية ممثلة في البحرية الملكية هو السبيل الرادع للإمبراطورية البريطانية، ففي حين أن فترة التوتر الدولي كانت قد سبقت الحرب العالمية الثانية مباشرة، فإن الأثر الرادع الذي أوجدته بوادر تلك الحرب قد أثار الخوف بين صفوف السياسيين على الجبهتين البريطانية والفرنسية ولكن ذلك لم يكن إرضاء لمواجهة النظام النازي المخيف، ولكن، فعلى الرغم من هذا المثال وغيره من عشرات الحالات المماثلة، فإنّه، ومع وجود الأسلحة النووية وما يرتبط بها من إستراتيجيات، فإنّها تبقى أداة الردع الحاسمة في أغلب الأحيان.

كانت الإستراتيجية النووية - في وقت مبكر - تعتبر كأداة ردع انتقامية واسعة النطاق ولكنها تتمثل في ردع أكثر بدائية. ولتوخّي الدقة هنا:

فإذا ما تعرضنا لهجوم قوي، أو إذا اعتقدنا بأنّنا على وشك أن نتعرض لهجوم بالأسلحة النووية، فإنّنا سنقوم بالرد الأعنف والمتمثل باستخدامنا لكامل القوة التي بحوزتنا!

وهذا ما جعل الرئيس الأميركي "دوايت أيزنهاور" لإعادة النظر بقوى أدوات الردع وتبني نظرة جديدة لسياسة الأمن القومي في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين،

obeikandl.com

والذي خطط لخفض التكاليف الكلية للدفاع، واستغلال الولايات المتحدة للقدرات العسكرية كبيرة من خلال التركيز على الميزة النسبية للقوة الجوية، في حين قال "أيزنهاور": إنّ الضربة الانتقامية يجب أن تكون واسعة النطاق بحيث تشمل كل شيء أو لا شيء، لأنّ نهج القوة المضادة يجب أن يصبح في حالة تكون فيها تلك القوى غير قابلة للتحقيق.

وهكذا، فإنّ أفضل ما يمكن فعله لذلك، هو تجنب الصراع في حال عدم وجود ردع متبادل.

وكما جاء في الفصل الثاني، فإنّ تطور الإستراتيجية النووية في نهاية المطاف سيؤدي إلى التدمير المتبادل المؤكد، وهو مفهوم يمثل أوج الردع، ذلك الدفاع ضد التهديد النووي سيكون عاجزاً، وهذا يعتبر في حدّ ذاته نوعاً من أنواع الردع، في حين يمكن أن يكون بمثابة الردع المضاد.

لقد ثبت تماماً - وعلى مدى قرون طويلة من الصراعات العسكرية - من أنّ التوازن الدقيق يكون في كثير من الأحيان هو مفتاح الردع، وذلك من خلال الحاجة بشكل أساسي إلى كل من اللاعبين لضمان حصول الضربة الثانية.

لكن المنطق الذي يفرض نفسه فيما يتعلق بتحقيق التوازن هنا هو أنّه ما لم يشعر كل جانب من الجوانب المتصارعة بالثقة من قدرته على الصمود أمام الضربة الأولى، بحيث تكون لديه القدرة دائماً على القيام بتوجيه ضربة الرد المتبادل، فإنّ ثمّة عناصر هامة معينة سوف تصبح باطلة، في حين أنّ الإغراء بشنّ هجوم وقائي خلال فترة تصاعد التوتر قد يحقّق تفوقاً ملموساً.

ولكن في حال لم تكن القوة الرادعة محمية بشكل جيد وبحيث يكون لديها القدرة على تمكين استقرار الحالة التي من شأنها - خلاف ذلك على وجه السرعة - لأن تصبح قوة غير متوازنة بصورة خطيرة. ومن النتائج الطبيعية لذلك هو أنّه يجب على أي من أطراف النزاع تطوير هيكل القوة على هذا النحو كلما تعرض لخطر الآخر وفي القدرة على صدّ الضربة الثانية، على سبيل المثال، من خلال الحصول على نظام فعّال للدفاع الصاروخي الذي يعتمد في الأساس على أن يكون أداة فعّالة

وذات أثر رادع من شأنه أن يقوض دعائم نتائج الضربة الثانية المحتملة.

لقد كان واضحاً أنّ أهمية عامل "تأكيد التفوق" كانت ضرورية في الجهود والنفقات التي أنفقها الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية والتي كانت مكرسة بالأساس لاقتناء مجموعة متنوعة من نظم التوصيل، والذي كان الهدف الرئيسي منها يكمن في إنشاء منظومة ضمان مستوى عدم السماح لتكرار الضربة الثانية.

في البداية، وبعد الاعتماد على الطائرات المأهولة الوحيدة لإيصال منصات الأسلحة للبلدان المتقدمة النمو وعلى حد سواء إيصال الصواريخ الباليستية العابرة للقارات، ومن ثم القيام بعد ذلك بتحقيق ضربة وقائية كإطلاق الصواريخ من الغواصات، مع احتمالات أنّه في حال حققت الضربة الأولى النتائج المطلوبة فإنّ خيار الضربة الثانية سيكون غير رشيد، ولذلك، فقد اجتمع ثالوث خبراء الحرب ومنابر الساسة، قادة الميدان على تحييد الضربة الثانية، بعد التأكد من قدرة ونتائج ما سبقها، وهكذا، تمت المصادقة على ذلك.

وخلافاً لغيرها من الإستراتيجيات النووية، فقد كانت فكرة التوازن الإستراتيجي - ومن بينها التوازن النووي - تعتبر فكرة مصداقية، وذلك على مدى خمسين عاماً من الجمود النسبي للإستراتيجية، وقد كان لذلك فوائد عدّة من بينها أنّ ذلك التوازن كان بمثابة أداة ردع يمنع خوض صراع عسكري مباشر بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

ولكن كان هناك ثقة أقل فيما يتعلق بالإستراتيجية النووية بين القوتين النوويتين في باكستان والهند، وخصوصاً في باكستان التي لابد لها - ولو مرة واحدة - من ضرورة تحقيق القدرة المؤكدة على الضربة الثانية في حال وصولها، وكان الشك في ذلك هو بسبب قرار الولايات المتحدة في عام 1990 لوقف وصول عدد من الطائرات الحربية القاذفة من طراز إف 16.فقد كانت المشكلة تكمن في أنّ الباكستان قد تطور النزاع مع الهند، وقد تهدد باستخدام الصواريخ "الباليستية" القادرة على حمل رؤوس نووية، لضرب الهند، والتي سيكون لها أثر مدمر وساحق، بل وقد تعتبر

الضربة الأقوى على صعيد المنطقة وخاصة في حال تم استخدام المقاتلات الأمريكية التي ستدعم الأسطول الجوي الباكستاني، وكان عدم تزويد باكستان بالمقاتلات الأمريكية يعتبر بمثابة عنصر حاسم في ردع وقوع حرب نووية باكستانية ومنعهم من ذلك مع إغرائهم على العمل من أجل السيطرة على أي تصعيد خلال فترات التوتر المتصاعد، وقد أثبتت التجارب بأنه يمكن السيطرة عليها.

ولكن، في حين أن بعض المعلّقين قد توقعوا رفع الحظر المفروض في نهاية المطاف في عام 2005 من قبل الولايات المتحدة عن الطائرات المقاتلة إف 16 في سباق التسلح، فإن البعض الآخر يرى أن من شأن ذلك قد يساعد على تخفيف مخاوف باكستان، وتعزيز الاستقرار الإقليمي فيما يدعو "بتوازن الرعب".

كان مفهوم الردع يدور في إطار الصراع. وكثيراً ما كان يرتبط بوزير الدفاع الأميركي المثير للجدل في الستينيات من القرن العشرين 1960 ورجل الأعمال الأكاديمية "روبرت ماكنمارا" حيث كانت الفكرة السائدة آنذاك تكمن في أن القوى المسلحة نووياً قد تشارك بعضها البعض، لكن ذلك كان لا يزال بمثابة فكرة غير مباشرة على الرغم من مراعاة القيود المفروضة ذاتياً آنذاك.

ولذلك، فإن هذه الحدود قد تكون أو لا تكون محددة الأُطر، بحيث يمكن أن تشمل حظر بعض الأسلحة والأهداف، ووضع حد أقصى لمستوى القوة المستخدمة، والحدود الجغرافية الصارمة. وهذا المفهوم كان واضحاً من حيث متانته على طوال فترة الحرب الباردة، ولاسيما خلال مشاركة الولايات المتحدة في حرب الهند الصينية، والصراع الذي قاده "ماكنمارا" إلى حد كبير.

مركز الثقل:

يعتبر مركز السلطة والحركة - والذي يتوقف عليه كل شيء - هو الوصف الذي قدمه الخبير الإستراتيجي "كلاوس" بشكل رسمي على أساس فكرة "مركز الثقل".

وبغضّ النظر عمّا إذا كنا نريد استخدام خيارات "الإجبار" أو "الإكراه" أو "الردع" فليس هناك أهم من هذا المفهوم في الفكر الإستراتيجي. وهذا ما يدل على وجود

صلة مباشرة بما كان العبقري الإستراتيجي "صن تزو" قد أشار إليه بقوله "تعرّف على العدو وتعرّف على نفسك".

وهكذا، فإنّ الغايات تبين وسائل بناء الطرق، والتي ستكون معتمدة على أكثر من مركز بحيث يتم التركيز على أساسيات كل عمل إستراتيجي والعمل على دراسة التحليل والعمل، بغض النظر عن مستوى الصراع في الآونة الأخيرة بين بعض الأوامر ومتطلبات البيئية لوصف عملية مركز الثقل والتحليل، كما ويقدم وصفاً آخر من دون التأثير على منطق المفهوم الإستراتيجي، في حين يوازي فكرة التعادل مع مبدأ الفكرة، ولذلك، فإنّ التعبير المستخدم أحياناً في مناقشة وصف الإستراتيجية يحمل ما يدعى "بتركيز الجهد"، أو القضية الرئيسية التي يجب على كل الجهود أن تدور حولها وكما كشف ذات مرة، فإن فكرة مركز الثقل هي فكرة أنيقة وبسيطة وقوية.

فإذا تمكنّا من تحديد هوية الكيان أو القضايا التي يحتاج خصمنا تقييمها، أو التي تحتاج قبل كل شيء إلى سلطة ميزة الراحة والرّفاه في الأساس، في حين أنّ كل طاقاتنا يجب أن توجّه ضد هذه المراكز باعتبارها أكثر الطرق فعالية لتحقيق هدفنا المنشود. وعلى العكس من ذلك، يجب أن نكون مستعدين للدفاع بحزم لا يقبل النقاش عن منطقتنا من بين مراكز الجاذبية المحيطة، وذلك خشية توجيه ضربة ناجحة من جانب خصمنا قد تنقلنا إلى موقع خلفي، أو تدفعنا إلى التراجع. وهكذا، فإنّ ثمّة مفهوم وثيق الصلة بما سبق ذكره، يتعلق بالسعي للمنافسة بوسائل أخرى، والتي تتراوح بين الأعمال التجارية ورياضة الشطرنج الحربي.

ولكن مع ذلك، وكما في كل الحالات تقريباً، فإنّ نظرية الترجمة العملية للتحول إلى التنافس غير الحربي، يمكن الطعن بها.

من أكثر القضايا وضوحاً فيما يتعلق بوسط الجاذبية من التحليل، هو ما تبدو عليه النظرة الشمولية للحاكم، كما يقع تطبيق ذلك على جميع المؤسسات داخل السلطة الفردية، حيث يبدو من المنطقي أن يكون الهدف من الجهود المباشرة هو في إزالة الديكتاتورية التي أوغلت - على مر العصور - بارتكاب الاغتيالات، والاعتقالات أو

القتل في المعارك، وقد تبدو تلك القضايا واضحة الحلول.

وقد اتضح ذلك - عبر التاريخ - في كلا النهجين، كما اتضح من مصير الإمبراطور الفارسي "داريوس"، والإمبراطور الروماني "يوليوس قيصر"، والإمبراطور الفرنسي "نابليون بونابرت"، والروسي "نيكولا" وغيرهم الكثير.

ومع ذلك، ففي القرن العشرين، فقد كان من الصعوبة بمكان العثور على بعض الحكام القادة المعروفين في القرن العشرين "كأدولف هتلر"، و"عيدي أمين" و"صدام حسين" و"فيدل كاسترو" على سبيل المثال، أو اغتيالهم، وعلى الأخص أنهم قد نجوا من محاولات اغتيال عديدة للسيطرة على بلادهم منذ سنوات.

وهكذا، وبشكل أعم، فإنّ فعالية حملات الاغتيال ستبقى مستمرة، مثل تلك التي قامت بها "روسيا" ضد ثوار النخبة الحاكمة في عام 1870، وقوات الدفاع الإسرائيلية ضد مختلف الجماعات العربية في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين، على الرغم من الأمر قد يبدو مشكوكاً فيه.

ولكن، على ذلك، فقد يتم توارث ذات الإستراتيجية بما فيها أجهزة الدولة من زعيم لآخر بعد الوفاة، أو الاغتيال، كما جرى مع الزعيمين "لينين " و"ستالين" الذي تسلّم في نهاية المطاف مقاليد قيادة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية في العشرينيات من القرن العشرين، وما حدث مع الزعيم الكوري الشمالي "كيم أيل سونج" حيث تسلّم القائد "كيم يونج أيل" زعامة كوريا الشمالية في عام 1994 قاطعاً بذلك الطريق على الحالمين بتحويل كوريا الشمالية آنذاك إلى دولة أكثر ليبرالية.

ولكن، إذا كان ذلك صحيحاً، فإن التحدي المتمثل في اتخاذ قرار بشأن ما سيفعلونه سيكون مبسطاً وليس من الضروري أن تكون قراراتهم واضحة.

فالجيوش المختلفة قد تكون مختلفة في مراكز الجاذبية؛ وعلاوة على ذلك، فإنّ أي تشابه في حد من حدود رمزية مركز الثقل، سيؤدي إلى أن يكون هناك حسم - ولو كان فرعياً - شبه مؤكد من النقاط الرئيسية للتحدي -، فالجيش الإسرائيلي الذي يقود حرباً غير متكافئة مع المنظمات الجهادية - لديه مجموعة كبيرة من

مواطن القوة والضعف. حيث لا يعرف أين يكمن ذلك الضعف بالذات؟ هل بالقيادة، وتوفير نظام مكافحة معين، أو في الروح المعنوية لعائلات الجنود في وطنهم المزعوم؟. يعتقد العديد من المحللين، أنه بسبب وسائل الإعلام المعارة والقدرة على تقديم تقارير المعركة - والتي تكون مروعة في بعض الأحيان والتي أصبحت تصل إلى ملايين البيوت في المدن وفي الضواحي - وكثيراً ما كانت تقرب من الأوقات الحقيقية، وتثير الحساسية المفرطة أصلاً تجاه الخسائر البشرية في حين أصبحت يحل محلها ضعف المجتمعات الغربية، وقوات الدفاع.

على النقيض من ذلك، فقد كان الشيوعيون في فيتنام، وخلال هجوم "تيت" عام 1968 على استعداد لتقبل الخسائر المروعة في سبيل تحقيق هدف سياسي، أو لاحقاً، ما حدث مع جماعات جهادية مثل "تنظيم القاعدة" وحركة "حماس" وحزب الله، والجماعة الإسلامية، والعديد من أعضاء تلك الجماعات الذين ليسوا فقط على استعداد للموت من أجل قضيتهم فقط، ولكنهم في الواقع يسعون لنيل شرف الشهادة.

وفي هذا السياق، يمكن ذكر عدد قليل من أفضل الأمثلة على تعقيدات وسط الجاذبية، حيث توجد أكثر من محاولة من جانب فرق البحوث الميدانية لتحديد الإستراتيجية، كما حدث أثناء استهداف الحلفاء مجتمعين في الهجوم الانتحاري ضد ألمانيا وإيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية، تلك الرؤية التي تقربها حرب المنتصر باستخدامه طريقة خروج المغلوب بالضربة الحاسمة، والتي قادها المخططون في لندن، ومن ثم سكبوا موارد تحليلات أعدائهم في اقتصاديات الحرب.

ظهرت إثر ذلك دراسات تفصيلية لمفاصل الحرب، وقدمت ما سميت بالشبكات الصناعية الحيوية نقاط الاختناق، وبعض سلبيات الإستراتيجية المستخدمة، وما شابه ذلك، ولكن دائماً مع هدف واحد لتحديد العناصر التي أدت إلى إسكات العدو وانهياره.

ونظراً لتعقيدات هذا الموضوع، لا ينبغي أن يكون من المستغرب أن المحللين - على اختلافهم - قد حدّدوا مختلف مراكز الثقل فالبعض منهم قد استند إلى نظام النقل؛

في حين وضع آخرون الكرة في المصانع الحربية، أو النفط، أو الروح المعنوية لعمال المصانع أو الغواصات... إلخ.

وهذا هو الانتظام الذي يدعى خروج المغلوب بالضربة الحاسمة، وهو الحل الذي قدمه المسؤولون البريطانيون بالاستناد إلى هجوم الأسطول الثقيل، وقد قال المارشال السير "آرثر هاريس" بأنّ ما قد ينظر إليه بازدراء الآن يمكن وصفه كعلاج شافٍ للاستهداف.

ما زالت، على الرغم من تقلبات دراسة هذه الحالة على وجه الخصوص، من الأهمية بمكان تسجيل اثنين من النجاحات الملحوظة باعتبارها مركز المراقبة العامة على نطاق الجاذبية التحليل:

• **أولاً:** قبول الحلفاء في "نورماندي" لعملية الإنزال البرمائي ابتداء من ساعة الصفر في 6 حزيران / يونيو من عام 1944، وتوزيع الموارد الثقيلة لأساطيل الانتحاريين التي توجه إلى تركيز جهودها ضد شبكة النقل في فرنسا، والنيل من النازيين في قدرة ذروة إمداد التعزيزات والإمدادات على المجالات الحيوية.

لقد كان واضحاً - في وقت لاحق - أنّ القوات الجوية التي أصابت نظام النقل المضاد بالشلل كانت واحدة من أهم نقاط النجاح في عملية "نورماندي".

• **ثانياً:** في السنة الأخيرة من الحرب، كان الهجوم الانتحاري يكمن في التركيز على إنتاج وتوزيع إمدادات النفط الألمانية، والتي كان لها الأثر المدمر على آلة الحرب النازية بينما كانت الدبابات والشاحنات والطائرات إلى حد كبير في الميدان قد توقفت حياتها وماتت كالأجساد التي جفَّت منها الدماء. وقد يكون مركز الجاذبية للتحليل صعباً هنا، لكنه ليس مستحيلاً، وبذلك، يمكن أن تنقلب الموازين بشكل هائل. ولذلك فمن الطبيعي أن يكون هناك علاقة بين الوسط من الجاذبية وبين التحليل، ولكن قد ينتهي ذلك بعدة طرق.

بصرف النظر عن مستوى المشاركات في الحروب أو في العمليات ذات الطابع العسكري، وبغض النظر عما إذا كان الشخص المسؤول هو قائد عام للحملة، أو برتبة عريف في المشاة يؤدي القسم، وعند المواجهة مع أي نوع من القوة المعادية، وإذا

سمحت الظروف بذلك، فإنّ هذا الشخص يجب أن يقيّم - على الأرجح - عواقب أي مشاركة بالنسبة إلى الغايات المنشودة على نطاق أوسع، وبعد تقديم هذا التقييم، فإنّه ينبغي عندئذ أن يقرر ما إذا كان سيقوم بمحاولة فرض "الإجبار" و"الإكراه"، أو "الردع" أو لتجنب الاتصال، وما إلى ذلك.

وفي نفس الاتجاه، فإنّ العدو ينبغي أن يخضع لنطاق مركز الجاذبية من أجل تحليل أفضل لتحديد الكيفية التي يجب أن يشارك بها: وهل سيكون هناك جنود يتمتعون بذات الحيوية، أو نوعية السلاح، أو الضعف الخارجي؟

وبطبيعة الحال، فقد اتضح أن الظروف لا يمكنها أن تنكر أحد أطراف النزاع أو أن تمنح كليهما فرصة للنظر في اتخاذ القرار، كما هو الحال مثلاً في الحالات المفاجئة والاشتباكات غير المتوقعة، أو إذا كان هناك أحد يعرف التصميم من جانب واحد على اتباع طريقة معينة للعمل بغض النظر عن أي شيء آخر.

كما أنّنا بحاجة إلى الاعتراف بأنّ القرار الغريزي يمكن في كثير من الأحيان أن يعمل على أفضل وجه وخاصة عندما تواجه فرصة المطالب استجابة فورية. وبالرغم من ذلك، فإنّ الإصرار على ذلك المنطق إذا كان ذلك ممكناً، قد يؤدي إلى وجوب تحديد وسط الجاذبية وعندها لابدّ من إجرّاء التحليل.

من البديهي أنّ الحروب - في نهاية المطاف - هي انعكاس للإرادات، وقد بدا واضحاً في السنوات أن مركز الجاذبية للتحليل يميل إلى التحول من الضعف الجسدي نحو ذلك العقل والعواطف، وعلى الأقل في أعلى مستويات التنافس الإستراتيجي. وهذا يعتبر كالقيم أو النهج القائم على المساعي التي تستهدف التعرف على أشياء العدو قيادة وخططاً، وهي تهدف بصورة مباشرة كلاً من النخبة وعدد السكان، أو القوات المسلحة، أو البنية التحتية الوطنية... إلخ.

لقد أظهرت الأنظمة الاستبدادية مثل النازية، الإمبراطورية اليابانية، والبعثيين العراقيين ومن على شاكلتهم أنّها على استعداد للسماح لمواطنيها بالموت من أجل صمود بقائها، بل وتدمير كل ما يقف بوجهها ما دامت الدائرة الداخلية آمنة. ولا ضير في ممارسة سياسة الإكراه على العمل، من أجل أن تكون النخبة الحاكمة

شخصياً في مأمن خلال الهجمات على أشيائها الخاصة وثروات أفرادها وممتلكاتهم، وهواياتهم، وربما أصدقائهم وأسرهم، بل وقيمهم أيضاً.

ومن بين الأمور الأخرى المتعلقة بعلم القيم، فإنّ الاستهداف ينطوي على فهم عميق لثقافة العدو، وهذا بدوره يعرض المشاركات الأصيلة لمزيد من التعقيد. كيف؟.

وعلى سبيل المثال، فبالرغم من مهاجمة مجموعة من القيم التي تتمتع بها بعض الجماعات الجهادية مثل جماعة "طالبان" في أفغانستان، والمعتقدات الدينية العميقة فإنها يجب أن تكون خارج نطاق كل من الأسباب القانونية والأخلاقية، ولكن على خلاف ذلك، فقد يبدو أن الأمر يبدو خالٍ من سهولة التعرف على القيم؟ وما هي الآثار القانونية المترتبة على الضربات ضد الأفراد والأسر، والملكية الخاصة؟ ولكن مع ذلك، فإنّ الفكرة التي تقتضي على الفور معاقبة المسؤولين عن تلك الظروف التي نرغب في تغييرها، بدلاً من ضربهم الدائم للأفراد العاديين، وهو أمر حدسي جذاب، وكانت هناك مناسبات عديدة عندما يكون النهج ناجحاً.

يبدو أنّه من الممكن أن تطبق القيم التي تستهدف قوات حلف شمال الأطلسي ضد مجرم الحرب الصربي "سلوبودان ميلوسيفيتش" وأعوانه في عام 1999 قد أثرت في موقف يوغوسلافية السابقة المتعنت المستبد في قرار الاستسلام.

وفي هذا السياق، فقد كان التباين واضحاً في بعض الأحداث التي وقعت في منطقة الشرق الأوسط في عام 2004، عندما بدأت قوات الدفاع الإسرائيلية الرد على الهجمات التي تشنها قوات حزب الله الشيعي الإسلامي من لبنان، وليس عن طريق مهاجمة قواعدها، وليس على عادة ما كانت تفعل في الماضي، بل عن طريق محاولة الاقتصاص من سورية بشتى الوسائل.

يأتي مفهوم مركز الثقل مع مجموعة من سمات الدراسات الإستراتيجية، وذلك حسب بعض المعلّقين ولكننا في هذا السياق، سوف نصرّ على أن لا يمكن إلا أن يكون هناك مركز ثقل واحد، كما هو الحال في الفيزياء، على الرغم من أن البعض الآخر يعتقدون أنّ الأمر أكثر مرونة وقابلية للتفسير، بل وأكثر ملائمة لعمل العقل البشري.

وهكذا، فكما هو الحال مع تعريف نشوء الإستراتيجية في حد ذاته، فمن المهم أن ندرك هذه التغيرات، ولكن الأهم هو عدم السماح لهم فكرياً أن يتحولوا دون تولي الأبعاد. وثمة نقطة بداية مفيدة لدراسة الحرب التقليدية في محاربة المفاهيم والممارسات - إستراتيجية فهم ما يجري - وتكون قادرة على العثور على هذا الفهم في إطار الظروف السائدة.

obeikandl.com